د. عطيات أبو العينين

ضُـــرَتي

قصص قصيرة

إلا جدتي

" لم تكن جدتي ككل الجدات .. " .. كانـــت الصـــورة العالقـــة بمخيلتي عن الجدة أنها أم رؤوم تغدق بسخاء من ينبوع حنانهـــا الفياض على كل من حولها من الأبناء والأحفاد فتشملهم بعطفهـــا وحنانها.. إلا جدتي لأبي ، فهي جدة من نوع خاص .. بـــالرغم من أنها أشرفت على الثمانين فمازالت تعتني بنفسها بشكل زائد ، وتتمسك بأهداب الدنيا بكل قوة وكأنها تأبى ألا تتركها وفي كأسها قطرة واحدة ..

ومنذ وعينا على الدنيا عرفنا من خلالها تلك الأشـــياء التـــي كانت تنهرنا عليها جدتي لإحضارها في التـــو واللحظـــة .. قلـــم الحواجب الذي كانت ترسم به حاجبيها ، والملقاط الـــذي كانـــت تزججهما به ، و الكحل الذي تكحل به عينيها فيزيدهما قسوة على قسوتها ، والحناء التي حولت رأسها الأشيب إلي هالة متوهجـــة من النار ، وأم إسماعيل صديقتها العجوز التي كانت تأتيها مـــن

وقت لآخر لعمل المساج لها ومدها بالوصفات الشـعبية التـي لا تخيب رجاء ، والتي تجدد بها شبابها الذي انصرم ولـي قبـل الأوان "علي حد قولها " وكثيرا ما تلقي بتبعة الزمن علينا نحـن الذين جئنا إلي الدنيا فكنا والزمن عليها ..

هكذا كانت جدتي " بدر " قاسيه القلب كـالحجر الصـوان ، تعيش لنفسها فقط مع الأيام الخوالي التي ولـت وتجتـر أفـراح الزمن البعيد .. تقوم الدنيا ولا تقعـد إذا لمحـت فـي وجهها الأبيض المستدير انحرافا أو تغضنا ، وتصب جام غضبها علي الزمن وعلينا و تنعي أمها وأبيها اللذين رحلا منذ نصف قرن أو يزيد وتركاها فريسة للزمن الغادر ..

لا أنسي ذلك اليوم الذي جاءها فيه نبأ وفـاة أحـد أبناءهـا ولفرط دهشتي وجدتها تلملم حاجياتها وتنهرنا للبحث معها عـن الطرحة السوداء والعباءة المطرزة والمنديل الذي تخرج به فـي مثل هذه المناسبات والجورب الأسود والحذاء ولا تنسى بـالطبع حق النشوق الذي لم يكن يفارقها ليل نهار ..

سامحيني يا جدتي كنت أتمني أن تكون الصورة التـي فـي مخيلتي عنك غير تلك .. مازالت أصابعك الخشـنة المخضـبة بالحناء مغروزة في جسدي ، فلا أنسي قرصتك التي تخرج بالدم وتترك مكانها علامات زرقاء مستديرة فـي أجسـامنا .. حتـى

حكاياتك التي كنت ترويها لنا عنوة لكي تتعسينا لم تكن تخلو مـــن قسوة ورعب ، فكنت أسمع من صديقاتي عـــن الحكايـــات التـــي ترويها لهن جداتهن عن الشاطر حسن وســـندريللا .. والأقـــزام السبعة ..

أما في ســـرير جـــدتي الحديـــدي ذي الأعمـــدة الأربعـــة بالناموسية البيضاء عرفت فيه العفاريـــت والأشـــباح والقطـــة المخاوية التي كان يأتي إليها صاحبها كل يوم وهـــو معمـــم بأمعائها .. ويداه مخضبتان بالدماء ..

تزوجت جدتي ست مرات آخرها شاب يصـــغرها بـــأربعين عاما استولي علي كل ما حصدته في سني حياتها وهرب بعد أن باع بيتها .. تنصل جميع أبنائها لها ، فمن ذا الـــذي يســـتطيع أن يتحمل تلك المرأة المتصابية المتسلطة التي لم ترضـــعهم غيـــر القسوة والجفاء .. إلا أبي فقد أصر أبي أن تبقي عنـــده معـــززة مكرمة فأفرد لها غرفة خاصة في بيته المتواضع وبدلا مـــن أن تشمله بحنانها وعطفها زادت قسوتها نحوه وتحركت مشـــاعرها نحو أبنائها وأحفادها الآخرين الذين تنصلوا لها.. فزادت شكوتها نحونا وتبرمها منا وقسوتها علينا وخاصة علي أمي ، لكن أبـــي كان دائما يمتص غضبنا ويذكرنا بأنها أمه وجـــدتنا .. فاعتـــدنا علي قسوتها مع شدتها من أجل أبي ..

في أحد الأعياد أرادت أن تمثل جدتي دور الجدة فنادت علينا جميعا في الصباح وفوجئنا بها تدس في يد كل منا عيديه .. بضعة قروش قليلة .. لم تكن عادتها .. بعد قليل نادت أخي ليشتري لها حق نشوق .. فتلكأ الصغير بحجة أنه يلعب مع أقرانه .. لدهشتنا وجدناها تطالبه بالعيديه .

كانت صدمة لنا جميعا قبل أن تكون للصغير ، وعقدنا نحن الصغار اجتماعا مغلقا .. اجتمعنا علي شيء واحد ربما لا نستطيع الآن أن نجتمع ونحن كبار .. فقد رد كل منا عيديته إليها وتركنا لها الحجرة وانصرفنا .. لقد ثرنا جميعا على شئ بداخلنا لم نكن نعرف معناه حينئذ .. عرفناه عندما كبرنا .. انه الكرامة .. حتى مع جدتي ..

الانسلاخ

أطلت برأسها من مكمنها الأثير .. تلفتت يمنة ويسرة .. ملأت صدرها بعبق الحياة الذي حرمت منه شهورا طويلة وهي حبيسة في باطن الأرض .. تمطت بجسدها الانسيابي .. قفزت بمهارة فوق سطح الأرض كأنها لاعبة سيرك محترفة وراحت تزحف برشاقة ..

تمنت لو طارت مقلدة الفراشات والطيور التي تحلق حولها .. تمنت لو غردت مثلما كانت تغرد البلابل على الأغصان .. تمنت لو مشت علي قدمين أو أربع مثلما تمشي الدواب علي الأرض .. تمنت لو صرخت بأعلى صوتها لتعبر عما يجيش بداخلها من سعادة .. ما أجمل الحرية.. ما أبهج الحياة .. ولكن هيهات .. هيهات..

فجأة أحست بشيء يسري داخلها لم تستطع التعبير عنه .. بالرغم من أن الحياة قد منحتها هذا الفيض من الحرية فإنها

مازالت سجينة في هذا العالم الرحب المترامي الأطـراف ، وأن مكانها الأثير في باطن الأرض كان أرحـب بكثيـر .. راحـت تجري هنا وهناك .. تقفز وتتمطى وتتلوى وتتثنى دون فائـدة .. تنفست بصعوبة .. شيء يجسم علي صدرها .. أهدابها تتحـرك بصعوبة .. حاولت أن تتملص من ذلك الشعور الذي اجتاحهـا فجأة دون مبرر فلم تجد وسيلة للتخلص منه .. هل هـي النهايـة ...؟ أم هي بداية جديدة...؟

تمنت لو بكت .. لو صرخت .. لو نادت بأعلى صـوتها .. أنقذوني مما أنا فيه أخرجوني من هذا السجن .. ارحموني مـن هذا العذاب .. لكنها الحياة .. أبـت إلا أن تظـل خرسـاء . لا تستطيع أن تبوح بما في داخلها ..

فجأة .. تمزق شيء بداخلها .. لا لم يكـن بـداخلها .. بـل حولها .. انه ذلك الغشاء السميك الذي يلف جسـدها .. أطلـت برأسها لتداعبها نسمات الحياة ، عادت إليها أنفاسها ، بدأ قلبهـا ينبض من جديد ، عاد الأمل يراودها.

سرعان ما تخلصت من هذا الإطار الذي يحتويهـا ويعـوق حركتها ، أخذ ينحسر عنها شيئا .. فشيئا .. تلفتت يمنة ويسرة .. قفزت في مهارة .. عادت ترقص رقصة الحيـاة مخلفـة العـدم وراءها ثاويا في جلدها القديم ، ومنحتها الحياة شعورا جديدا مـع

هذا الثوب الجديد .. أخذت تتلوى وتقفز في الهواء وتلف حــول نفسها في استدارة كاملة وكأنها راقصة باليه متمرسة .

انتبهت فجأة علي صوت يصرخ في أذني .. ويـــد تـــدفعني بعيدا.

_ احذري .. العقرب .. العقرب ..

جمدت في مكاني .. بينما راحت الأقدام تدوس ذلك العقــرب الذي كان يقصدني . ودمعت عيناي .. تلفت حولي متأملــة هــذا المكان الذي تركت بلدي ووطني من أجله .. جبال شاهقة تمتــد إلى عنان السماء تحيط بي من كل جانب رمال صفراء صــفرة الموت .. سماء ملبدة بالغيوم .. إلا إذا تسللت أشعة الشمس خفية في أحد الأيام.

شعرت بالاختناق .. تذكرت يوم تركت وطني مساء دون أن يأتي أحد لتوديعي وكأنني ورقة شجر جافة ذابلة لفظتها شجرتها وقت الخريف .. يومها شعرت أنني أنسلخ عن جلدي ، تمنيــت لو استطعت الخروج ، وحسدت هذا الكائن الذي يستطيع أن يغير ثوبه كلما ضاق عليه .. ولكن هيهات .. هيهات .

رحت أحلم باليوم الذي أجد فيه نفسي عندما أعود .. ولكــن ظل هناك شيء ما يجثم علي صدري ..

المقعد الخالي

محفورة ملامحه في قلبي وعيني ، مطبوع طيفه في وجداني .. وجه أسمر في لون سنابل القمح اكتسى بحمرة تشـــربها مـــن أشعة شمس ذهبية ، عينان عسليتان صافيتان .. لم يعتد الشكوى ، وكيف يشكو وهو يرى حبات عرقه تتساقط على بذور غرستها يداه فنمت وربت و أثمرت زهورا يانعة طالما تمناهـــا، تفـــيض روحه بالخير بجميع فيمنحنا الحياة ولولاه ما كان لنا وجود ..

كم استشعرت دفأه في الليالي الباردة وكأنني قطة تلوذ بفـــراء أمها هربا من زمهرير الشتاء ، كم استوحشـــت المكـــان عنـــدما يكون في سفر وأقضي الأيام وحيدة تتسلمني أمراض غريبة يحار فيها الأطباء تزول سريعا عندما يعود .. فأرمي بنفسي بين يديـــه وأمرغ رأسي الصغير في صدره الرحب فأجد فيه الأمان الـــذي فقدته وترتد إلى روحي التي زايلتني ، أرى الدنيا كلهـــا بســـاطا أخضر مترامي الأطراف وكأن الفقر والجدب رحلا بلا عودة ..

نقشت السنون في مخيلتي كل لمحة من لمحاته وكل قسمة من قسماته .. الهامة المرتفعة ، الكبرياء المعهود ، ابتسامة وليد تتهادى على شفاه لم تكن تعرف الحزن ، يدان تقبضان بقوة لا تعرف الكلل ورقة لا تعرف اللين على مقبض مقعده الأثري الذي توارثه جيلا بعد جيل .. يزيد من فخامته ذلك الإطار الذهبي المحلى بفصوص من الأحجار الكريمة المطعمة بقشور من الصدف في تعشيقات متداخلة وانسجام متناغم حتى صارت كيانا واحدا ..

هكذا كان أبي وهكذا كنا .. مازالت رأسه تحتل مكانها في تجويف مقعده الأثري ذلك المقعد الذي شاهد مولدنا جميعا .. جلس فوقه في لحظات عصيبة ينتظر أن تخرج صيحة بعد أخرى إلى الحياة ..

ما زلت أذكر كم طوقنا بذراعيه القويتين ونحن صغار كالدمى فوق قدميه صانعا من فخذيه حاشية ومن يديه وسائد لدنه .. كم أمطرنا بقبلاته الدافئة الحنونة وهو يؤرجحنا على مقعده لدى سماعه نبأ نجاحنا .. ولما كبرنا هرعنا إليه يحتوينا حياء العذارى ونخفي وجوهنا في مسنده حينما علمنا بمقدم عريس

تتساقط الورقات وتتزاحم الذكريات لتملأ المقعد الذي لم يبل بعد ، واختلطت دموع الفرح بنسيج الحزن مع تعشيقات المقعد فصارت حياتنا واحدة ..

أفقت من غفوتي على صوت أجش ، ووجه نحيل ، ويدين تحاولان أن تنأى بي بعيدا :

_ من فضلك يا هانم .. المقعد ..

وانتبهت على أجراس المزاد العلني الذي يبيع محتويات البيت الذي خلا من صاحبه ، ولم أشعر بيدي وهي تقبضان على مقبض المقعد وكأنهما ماتتا عليه ، وبرأسي تغوص في تجويف مسنده لتملأه حتى صارت جزءا منه ، وبقدمي تتشبثان بأقدام المقعد فصارت وهي سواء ...

وشعرت بصوت يخرج من أعماقي .. لم يكن صوتي أنا فحسب ، بل صوت آخر اتحد مع صوتي فصار جهوريا قويا .. راح يصرخ في زفرة محمومة ممزوجة بالألم والرفض والتحدي:

- لا .. لا

الخالة ريحانة

يا لصوتها الشجي .. تشعر وأنت تستمع إليه كأنه خارج مـــن أديم الأرض ، تلمس في رنته رنين صـــخور الصـــحراء وهـــي تصطك ببعضها ، كأن الجبال صبغتها بصبغتها الداكنة فصـــارت جزءا منه .. لكنني استطعت أن أستشعر هذه الترنيمات الحزينـــة الشجية ، كأن كلماتها التي لم أفهم معناها هي عزف للحن حزين على تلك الآلة التي تقطع نياط القلوب .. الناي .. امتزج نشـــيجه مع صوتها الحزين ليعزفا معا لحنا واحدا ..

هذه هي " الخالة ريحانة " بوجهها الأســـمر ســـمار الجبـــال الشاهقة التي تحيط بنا وقد لفحتها أشعة الشـــمس ، وغريـــب أن تلفح الشمس وجها لا يرى كلاهما الآخر إلا عابرا .. ربما تكون الشمس قد تسللت خفية إلى حجرتها لتتصت إلى صوتها الشجي ، أو لتشم زهور الريحان ..

أما الخالة ريحانة .. وهذا ليس اسمها الحقيقي ، إنما أطلقناه عليها لزهور الريحان التي تخفيها خلف أذنيها .. تميزت بهذه الرائحة التي تعبق المكان فتملأ نفوسنا انشراحا وإقبالا على العمل ، عرفناها بها منذ أن تدخل من باب المستشفى التي أعمل بها في تلك المنطقة النائية ، فما أن تأتي في الصباح لتنظيف مكاتبنا حتى يفوح عطر الريحان ليتضوع بعرفه المكان ..

- كيف حالك يا عواطف ؟

هكذا كانت تناديني " الخالة ريحانة " بلا ألقاب ، بالرغم من أن جميع العاملين بالمستشفى من أصغر عاملة إلى المديرة لا ينادونني بغير " الدكتورة ".. إلا الخالة ريحانة ، واعتدت منها ذلك .. فزهور الريحان تشفع لها.

صارت الخالة ريحانة جزءا منا ، بل صرنا جزءا منها .. حتى شكواها المتكررة التي تبثها إلينا من خلال ترانيمها وأغنياتها الحزينة .. كنا نلتف حولها ونستمع إليها في شغف وإعجاب .. فتارة الصداع اللعين الذي لا يفارقها .. وأخرى بذوراتها " أبناؤها " الذين تزوجوا وفارقوها .. وثالثة تنعي الزمن الذي ولى ومر من أمامها دون أن تدري به .. تاركا آثاره القاسية على شعرها الذي خطه الشيب ولم تفلح الحناء في إعادته كما كان .. وجهها الذي أصابه التجاعيد أسنانها التي سقطت قبل

الأوان كأوراق الخريف الذابلة ، وتحايلت عليها بأسنان ذهبية كانت تشاركها الابتسام إذا ابتسمت ، فتلقي بأشعة ذهبية على وجهها النحيل فتحيل وجهها الشاحب إلى لون النهار تحت أشعة الشمس ..

- ماذا بك يا خالة ريحانة ؟

سألتها ذات يوم عندما وجدتها تجلس في حجرتها الصغيرة بالمستشفى مكفهرة على غير عادتها ، واضعة إحدى يديها على خدها والأخرى تمسك بزهور الريحان كأنها تبثها شكواها .. هزت رأسها في أسى وقالت بصوت حزين :

- أصعب شيء على الإنسان يا ابنتي عندما يجد المياه تهرب من بين يديه قطرة قطرة دون أن يكون له أي إرادة للاحتفاظ ولو بقطرة ..
- كل إنسان لابد وأن يأخذ نصيبه غير منقوص يا خالة
- أجل .. ولكن ماذا تقولين في حصان عجوز يريدون أن يضربوه بالرصاص لا لشيء إلا أنه شاخ وكبر وأصابه العجز ..

تسكت قليلا لتقول بعين دامعة :

- عندما تشعر الأفيال بدنو أجلها فإنها تذهب إلى المقبرة بأقدامها ..

- أول مرة أراك تتحدثين بهذه الطريقة .. لا تكوني متشـائمة يا خالة . هيا فضفضي .. قولي ما يحزنك .
- لا داع لأن أنبش الجراح فتزداد اتساعا .. دعيها مغلقة على أصحابها ..

رحت أواسيها :

- نحن الذين بأيدينا أن نذيب الأحزان ونخفف الجراح عن المرضى .. ألا نستطيع أن نعالج أنفسنا ..
- كيف يا ابنتي ومرضنا فينا .. إنه الزمن ..
- إذن فلنصادق الزمن بدلا من أن نحاربه .. نتصالح معه ونصالحه خيرا من أن نسبح ضده .. فليس بأيدينا العودة إلى الوراء .. كذلك لا نستطيع أن نوقف عجلة الزمن ..
- وهل هناك أحد يستطيع أن يوقف سريان الزمن .. إنه يجري مسرعا كالقطار الجامح ونحن وراءه لا نستطيع أن نوقف سريانه ولا يمكننا اللحاق به ..

ضممتها إلي وأنا أقول :

- خالة ريحانة .. لقد تعودنا على ابتسامتك الجميلة وصوتك الشجي .. أرجوك لا تحرمينا منهما ..

هزت رأسها وعادت تترنم بأغنياتها الحزينة ونحن نردد وراءها ..

شيء مزعج أن يأتي يوم بدون الخالة ريحانة ، فقد تغيبت في اليوم التالي وأدركنا جميعا أن السبب حالة الاكتئاب التي انتابتها بالأمس .. ولكن أن يمر أسبوع دون أن تحضر أو حتى تبلغنا . فبالتأكيد في الأمر شيء.

لا أدري ما الذي دفعني إلى الذهاب إليها ، ولم أجد تفسيرا لهذا الهاجس الذي راح يلح على طول الطريق للبحث عن بيتها .. لعلها زهور الريحان التي كنت أشمها طول الطريق إلى بيتها ، وكأن الطريق يقودني إليها ..

لم أتعب في البحث عن بيت الخالة ريحانة ، فقد اكتشفت أنها أكثر شهرة من الطريق ومن الجبال ومن زهور الريحان .. وكنت طول الوقت أبعد عن مخيلتي مشهدا أخشى أن أراه ، وحمدت الله أن خيب ظنوني إذ فوجئت بالأنوار تملأ المكان كأنه عرس ، وأصوات غناء من الداخل تبينت منه صوت الخالة ريحانة تصيح في سعادة بصوتها المميز وبحتها الرخيمة .. كانت تعطي أوامرها لبعض الفتيات :

- هيا أسرعن .. ركبا الستائر وافرشا السجاد .. فقد أوشكا على الحضور ..

عندما التفتت ورأتني لم تصدق نفسها وضمتني إليها في ود فشعرت كأنني غرقت في بحر من الريحان ، ثم نزلت بي إلى

الطابق الأرضي وفتحت إحدى الغرف وتقدمتني وهي تقول بفرح:

- تفضلي يا عواطف .. هذه غرفتي ..

دخلت خلفها وأنا أتأمل حجرة نومها في دهشة وإعجاب معا ورحت أقول :

- لو لم تقولي لي إنها حجرتك لقلت إنها حجرة عروس في شهر العسل ..

ضحكت في مرح وقالت :

- هي فعلا حجرة عروس . فلم يمسها أحد حتى الآن ..

ثم أخرجت من دولابها علبة مجوهرات فتحتها أمام عيني وقالت :

- اشتراها لي زوجي بالأمس ..

- رائعة ..

ثم أخذتني سريعا إلى حجرة بالطابق العلوي . ونحن نصعد الدرج إليها سألتها :

- إنني أتعجب لك يا خالة ريحانة .. فامرأة مثلك رزقها الله بزوج له مثل هذا الذوق العالي وهذه الرقة الشديدة . وتمر باكتئاب ..

كنا قد وصلنا إلى الحجرة العلوية وفتحت لي الباب لأشاهد حجرة نوم تشبه تلك التي في الطابق السفلي تماما وسألتني :

- ما رأيك يا عواطف ؟ ..
- إنها مثل السفلية تماما ..

ضحكت ثانية وهي تعقب :

- أنا التي اخترت الاثنتين .. فكل شيء في البيت من ترتيبي أنا ومن صنعي أنا هذا المفرش الذي على السرير من عمل يدي ، فهو يحب اللون الوردي .. وأنا الذي رتبت له حاجياته في الدولاب بهذا الشكل .. حتى العروس أنا التي اخترتها .. شابة حسناء مهذبة وبنت ناس ..
- مبروك يا خالة ريحانة .. ربنا يتمم بخير

رحت أجول ببصري في الغرفة لأجد زهور الريحان تملأ المكان . ولاحظت أنني أنظر إلى زهور الريحان فضحكت قائلة:

- إنه يهوى الريحان أيضا ..

شاركتها الضحك وأنا أقول :

- من الطبيعي أن يهوى الريحان .. أليس ابنك ؟

انفجرت ضاحكة وهي تصيح :

- بل زوجي ..

رحت أحملق فيها غير مصدقة ، بينما راحت تقول :

- سواء أردت أو لم أرد سيتزوج ، فليتزوج إذن بـــإرادتي أنـــا وبرغبتي أنا ، واشترطت عليه أن يحضر لي مثلما سيحضر لها وأنا الرابحة في النهاية ...

ثم صاحت ناهرة الفتيات :

- هيا يا بنات علقا الستائر وافرشا السجاد فقد أوشك العروسان أن يحضرا

وراحت ترقص وتغني وتزغرد بانفعال .. ثم مدت لي صينية الشربات :

- تفضلي شربات الفرح ..

نظرت في عينيها فلمحت دموعا انسابت رغما عنها وسقطت على صينية الشربات ...

آي يا توت

آه يا توت .. يا حسرة القلب عليك أيها الملـــك الصـــغير .. يعتصرني الألم ويقتلني الأنين ، فالقلب يـــدمي والعـــين تـــذرف الدموع دما لأجلك .. آه يا توت ..

توقفت قليلا لأبتلع ريقي وأنا أسترق النظـــر إلـــى صـــغيري رامي الذي أحكي له قصة الملك الفرعوني الصغير " توت عـــنخ آمون " الذي كانت نهايته مأساة ستظل ماثلة فـــي الأذهـــان أبـــد الدهر ، فقد وجد مقتولا في حجرته بالقصر .. ولمحت في عيني رامي دموعا متحجرة أوشكت أن تنهمر ، وعلامات حزن باديـــة على وجهه .. لم أره حزينا هكذا من قبل ، وكأنـــه فقـــد إنســـانا عزيزا عليه .. والتقت أذناي صوت أنفاســـه المتهدجـــة وبكائـــه المكتوم وتنهيدات الأسى وزفرات الألم التـــي حـــاول جاهـــدا أن يخفيها بداخله حتى يبدو متماسكا أمامي ، فأشفقت عليه ورحـــت أهون عليه قائلة :

- كان هذا منذ وقت بعيد .. بعيد للغاية .. ما يقرب من أربعـــة آلاف عام ..

تكلم الصغير بصعوبة وهو يغالب البكاء ومرارته :

- ولكنها قصة حقيقية حدثت بالفعل ..

قلت له :

- يجب علينا أن نتعلم من هذه القصص العبرة والموعظة ..
- ولكن لماذا الناس يقتلون يا أماه ..
- هكذا الدنيا يا حبيبي صراع دائم بين الخير والشـــر .. قـــد ينتصر الشر مرات ومرات ولكن تأكد أن الخيـــر لابـــد وأن ينتصر في النهاية ..

من بين دموعه المحبوسة وأحاسيسه الطفولية الجياشة سألني بصوت متهدج :

- من القاتل يا أماه .. من قاتل توت عنخ آمون ..

قلت بتلقائية :

- القاتل هو ...

وتوقفت .. بالرغم من قراءاتي المتعمقة في كتـــب التـــاريخ واهتمامي المولع بتاريخ الفراعنة بالذات ، فإنني لم أكن أعـــرف من هو القاتل .. وربما يكون شغفي بقصة الملك الصغير " تـــوت عنخ آمون " قد شغلني عن الاهتمام بقاتله ..

عاجلني الصغير بإلحاح :

- من هو يا أماه .. من القاتل ؟

أجبته لكي أريحه :

- أعتقد يا بني أنه أحد الكهنة كان يطمع في الوصول إلى العرش ..

فوجئت بالصغير يضرب قدميه في الأرض ويصيح كأنه ثأر شخصي :

- اسمه .. أريد أن أعرف اسمه يا أماه ..

وعجزت عن الرد .. رحت أهدئ ثورته بوعد مني أن أخبره قريبا باسم القاتل بعد أن يحاول من جانبه التفكير فيه ، محولة القصة إلى لغز بوليسي يشغل رأسه حتى ينام ..

ونام الصغير ولكنني لم أنم .. وكأن اللغز الذي أشعلته في رأس رامي قد توهج في رأسي .. فقمت من فوري إلى مكتبتنا الخاصة أستخرج كتب التاريخ وأزيل من عليها الغبار أبحث فيها عن اسم قاتل " توت عنخ آمون " .. ولكن كلها توقفت عند سؤال صغيري بالغموض أو الحيرة ..

وأدركتني شمس اليوم الجديد ، ورغم ما كنت أشعر به من إعياء وعدم اتزان فقد أسرعت إلى المكتبة المركزية بالجامعة لأطلع على كل ما كتب حول هذا الموضوع ، وقد شعرت

بالعجز والتخاذل أمام تساؤل صغيري ، فلم أعتد أن أقف منه مثل هذا الموقف ، فقد عودته أن يجد إجابة وافية على كل سؤال .. وعجزت أيضا كتب التاريخ في الإجابة عن سؤالي ..

لمحني الدكتور " مؤنس صبري " رئيس قسم التاريخ وأنا غارقة بين سطور التاريخ باحثة ومنقبة ، فاقترب مني مازحا :

- أ تركتي قسم علم النفس يا دكتورة والتحقت عندنا بقسم التاريخ ، أم أنك عدت طالبة من جديد ؟
- أهلا دكتور مؤنس ..
- عم ماذا تبحثين ؟

وكأنني عثرت على أثر تاريخي سيبدد حيرتي ويجد لي إجابة عما أبحث عنه فبادرته مسرعة :

- من قاتل " توت عنخ آمون " يا دكتور ؟

انفجر الدكتور مؤنس صبري ضاحكا وهو يعلق :

- هل تنوين فتح ملف التحقيق الذي قيد ضد مجهول منذ أكثر من ٣٨٠٠ سنة؟

لكنني لم أشاركه الضحك وظللت أنظر له حتى انتهى ، فخلع نظارته من على عينيه وراح يمسح عدستيها وهو يقول :

- سوف تندهشين يا دكتورة لو عرفت أنني لا أعرف قاتل " توت عنخ آمون "

صحت مندهشة :

- رئيس قسم التاريخ لا يعرف قاتل " توت عنخ آمون "
- لقد شغل هذا الموضوع محور اهتمامي في فترة من الفترات ، بل إن رسالة الماجستير كانت تدور حول هذا الموضوع ، وبعد بحث طويل لم أصل إلى القاتل الحقيقي ..

ووجدت نفسي أتساءل بصوت مسموع دون أن أدري:

- ماذا أقول له إذن عندما أعود إلى البيت ويسألني ؟

وانتبهت على صوت الدكتور مؤنس :

- من تقصدين يا دكتورة ؟

صحت بانفعال :

- ابني يا دكتور مؤنس .. ابني الصغير هو سبب حيرتي .. سألني بالأمس عن اسم قاتل " توت عنخ آمون " ووعدته أني سأخبره قريبا ..

ضحك الدكتور مؤنس ثانية ، ولمحت هذه المرة في ضحكته رنة استهزاء :

- وهل تعجز أستاذة علم النفس عن الخروج من هذا الموقف .. أخبريه بأي اسم .. العبي بخياله ..

صحت بحدة :

- لا يا دكتور .. الحقيقة .. الحقيقة التي يجب أن نقدمها لأبنائنا .. الصدق .. ماذا يكون موقفي عندما يكبر ابنـي ويعـرف القاتل الحقيقي ويكتشف أنني كذبت عليه .. سؤال كهـذا قـد يغير من شخصية وكيان ابني ، بل أبناء الجيل كله ، وربمـا يغير أيضا من اتجاهاته وطموحاته .. نحن في حاجـة إلـى إعادة دراسة التاريخ من جديد .. فهناك أناس صنعهم التاريخ ببطولات لا يستحقونها ، وآخـرون يسـتحقون أن يمجـدهم التاريخ ولكنه طمسهم في سجل النسيان لأنهم وقفوا أمام مـن يسجلون التاريخ ..

تركته ومشيت وسط دهشته ، وقررت منذ ذلـك الحـين أن أدرس التاريخ برؤية جديدة .. ربما لكي أنصـف مـن ظلمهـم التاريخ ، أو لإلقاء الضوء على بعض جوانب قد نسيها التـاريخ ..

حصلت على الماجستير ولم أعرف من هو قاتل " توت عـنخ آمون " وكنت أهرب من إلحاح ابني على معرفة القاتل بأنني في طريقي إليه ، بل إنني أشركته معي في البحث عنه وجمع الأدلـة التاريخية التي تؤدي إليه من خلال كتب التاريخ التي يدرسها في المدرسة .. وبدأت أعد لنيل درجة الدكتوراه ..

وبعد سنوات مرت كالدهور من البحث الدءوب والإطلاع الجاد والدراسة المتأنية التي كانت شرارتها الأولى تساؤل من صغيري عرفت القاتل .. عرفته .. كان مختبئا بين سطور التاريخ المنسية .. وقررت أن أعلنه على الحاضرين يوم المناقشة .. سوف أفضحه أمام التاريخ .. وفي الحقيقة لم يكن هذا هو هدفي ، ولم يكن هدفي أيضا هو الحصول على الماجستير أو الدكتوراه ، خاصة أنني قد حصلت عليهما من قبل في علم النفس ، بل كان كل ما يشغلني طوال فترة البحث هو نظرة الرضا والاقتناع أراها في عيني صغيري ، والحقيقة التي يجب أن أقدمها إليه ..

وفي اللحظة التي رفعت صوتي معلنة على الملأ اسم قاتل " توت عنخ آمون" حدث ما لم يكن في الحسبان .. انتبهت على صرخة مدوية بالقاعة عرفت فيها صوت صغيري رامي وهو يصيح بصوت عال ممزوج بالثورة والتحدي معا :

- لا يا أماه .. لا تذكري اسمه .. دعيه منسيا كما نسيه التاريخ

وعرفت أن هذا هو أعنف عقاب لقاتل على مر السنين

عربة القمامة

أخذ نفسا عميقا من سيجارته نفخها بقوة في الهـواء لتحيطـه غلالة من الدخان .. تذكر شيئا نسي أن يقوله لزوجتـه الغيـور أثناء مشاجرة اشتعلت بينهما وهذا الأمر عادي بالنسـبة لهمـا ، فالمشاجرات بينهما لا تخمد أبدا ..

اتهمته هي بالخيانة وعدم تحمل المسئولية .. شكك هـو فـي تصرفاتها وفي المكالمات الهاتفية التي تأتي إليها حتى الخطابـات التي تصل إليها ..

فتح الباب بينما كانت تجلس في غرفة النوم مطرقة سـاهمة وراح يقول :

– هناك شيء آخر يا ست هانم . أنا لست مسـئولا عـن تقـديم تقرير يومي عن تصرفاتي .. هل سألتك يوما أين تـذهبين ؟ .. هل تلصصت على مكالماتك بين الحين والآخر ؟ .. هل فتحـت

درج مكتبك الخاص وفتشت بين أوراقك ؟ .. هل سألتك يوما عن مصدر الخطابات التي تصلك ؟

باغتها بكل هذه الأسئلة التي لم تكن تتوقعها ، نظرت له في حدة وأطرقت دون أن ترد .. صفع باب المكتب وراءه بشدة .. ظهر عليها الانزعاج لجملته الأخيرة وتساءلت فيما بينها وبين نفسها ..

ترى هل يقصد شيئا بكلماته هذه ؟ هل عثر حقا على الخطابات التي بدرجها لا تعتقد ذلك ، فلو كان يعلم عنها شيئا لما توقفت المشاجرة عند هذا الحد .. امتدت يدها بسرعة إلى أحد الأدراج أخرجت حقيبة من الجلد فتحتها أمسكت بلفافة من الخطابات وهي تتلفت حولها لتتأكد أنه مازال في غرفته . فتحت باب الشقة وراحت تمزق الخطابات وتلقيها في سلة القمامة ، ثم أغلقت الباب بسرعة

كانت هناك عينان تراقبان عن كثب اشتركت مع أذنين تلصصتا لتلملم خيوط المشاجرة من بدايتها ، وها هو مفتاح المشاجرة يلقى على بعد خطوات منها ..

فتحت حسنية باب شقتها المواجه لشقة الأستاذ صبحي وأسرعت إلى صندوق القمامة وقبل أن تصل يدها إليه سمعت

صوتا يتحرك صاعدا على الدرج هرعت إلى شـقتها وأغلقـت الباب بينما عيناها ملتصقة بالعين السحرية.

كان زكريا الزبال جاء ليحمل قمامة العمارة ، نظـر زكريـا نحو الباب الذي أغلق على عجل وراح يهز رأسه فـي سـخرية بينما يده تفرغ ما في السلة داخل جواله وراح يلقيه فوق ظهـره ومضى نازلا وهو ينادي :

- الزبالة ..

انطلق زكريا بعربته المتهالكة كعمره وكأنها تتـوارى خلـف الزمن لا يظهر منها إلا أطلال تذكره بالماضي القديم .. تمتلـئ بأكياس القمامة واضعا قدميه فوقها كأنه يضرب الـدنيا بحذائـه البالي لا يعبأ بالآخرين ، فقد تعود ألا يجـري وراء شـيء ولا يشغل باله بأحد . فكل الأشياء ترتمي تحت قدميه .. تعلم زكريـا الكثير خلال سني مهنته . تعلم أن يقرأ ما يدور بخلـد أصـحاب هذه القمامة .

عندما وصل زكريا إلى الخرابة التـي يلقـي فيهـا بقمامـة الآخرين راح يفك الجوال بحرص خشية أن تفـوح مـن داخلـه حكاية من الحكايات وقد ارتسمت على شـفتيه تلـك الابتسـامة الساخرة الباهتة التي لا تعبأ بشيء ، فليس هناك شـيء مهـم .. وليس هناك حاجة لأن يكتب على كل كيس رقـم شـقته واسـم

صاحبه ، فكل كيس ينضح بما فيه ، وحياة الناس ما هي إلا جوال يحوي قمامتهم . أمسك زكريا بكيس .. فتحه وهو يهز رأسه ويحرك إصبعه نحوه .

المهندس عماد .. أعزب يعيش وحيدا في شقة طويلة عريضة ورثها عن أبويه .. عرفه من كم زجاجات الويسكي والشمبانيا الفارغة وعلب الطعام الجاهزة فهو لا يستطيع أن يعد لنفسه كوب ماء .. ولا يتورع عن إلقاء بعض الملابس التي اتسخت حتى لا يحمل نفسه عناء تنظيفها .. إنسان بوهيمي .. حياته هي اللحظة التي يعيشها . يشبه تماما زجاجاته الفارغة

ألقى زكريا بكيس القمامة بعيدا وسط الخرابة وتناول آخر .. نعم .. إنه هو تلك لفافة الخطابات وبعض الصور التي مزقتها زوجته حتى لا تصل يده إليها . يا لها من خائنة .. تلك الأظرف ونفس الورقات لمحها زكريا في كيس المهندس عماد .. فهو أخطبوط كبير .. مع أنه صديق حميم لزوجها صبحي ..

ها هي جمالات أرملة المحامي حامد فرغلي أجل .. كان له باع طويل في المحاماة .. رحل وتركها وحيدة متشحة بالسواد تاركا لها خمسة أبناء تزوجوا جميعا ولا يفكر أحدهم في أن يطرق باب شقتها ليسأل عنها .. اللهم إذا وقع أحد منهم في

ضائقة مالية .. كيس قمامتها ينطق بالحزن كل ما يلقى فيه متشح بالسواد مثلها

أما الأستاذ سعيد مرعي الذي يسكن في الطابق السفلي فهـو موظف بالسكة الحديد .. لديه ثلاث بنات يعشن حياة الكفـاف لا تجد في سلتهم ما ينم عن ترف أو أكلة دسمة ..

أفرغ زكريا محتويات العربة من القمامة وراح ينطلـق بهـا بعيدا يهتز رأسه مع هزات رأس الحمار الذي يجره .. يتسع فمه ليرسم ابتسامة أخذت تزيد شيئا فشيئا حتى صارت ضحكة عالية ترددت في الخلاء واشتركت مع نهيق حماره وهو يحمد الله على أنه إنسان بلا قمامة ..

أحلام صغيرة

عندما كنت صغيرة كثيرا ما كنت أقوم من نـــومي منزعجـــة باكية لأنني حلمت أني أقع من أعلى جبل عال ، أو أنني وحيـــدة وسط الزحام أبحث عن والدي ولا أجدهما ، وكان جميع من فـــي المنزل يستيقظ منزعجا على صوتي ويظل والداي يهـــدئان مـــن روعي وينبهان علي بعدم الإفراط في الطعام قبل النـــوم ، أو أن أحكم الغطاء فوقي أثناء النوم ..

نفس ما كان يحدث لي وأنا صغيرة يحـــدث لابنتـــي الآن .. صرخة فزع رهيبة تقلق جميع من في المنزل ، وتظـــل ملامـــح الرعب بادية على وجهها مع لهاث وقشعريرة تشمل كل جســـدها .. وزاد الأمر سوءا حتى صار يحدث كل ليلة وأحيانا أكثر مـــن مرة في الليلة الواحدة .. أما أنا فلم أنم .. أظل متيقظة في انتظار الصرخة البغيضة حتى أهرع إليها لأطمئنها .. كنـــت أحاســـب نفسي حسابا عسيرا وأحلل الأسباب والنتائج ربما لأنني في الفترة

الأخيرة عاقبتها بشدة أو أفرطت في تأنيبها على كلمة نطقت بهـــا رغما عنها .. وقررت في نفسي أن أغير معـــاملتي معهـــا وأن أخفف من عقابي لها ..

جلست وزوجي نتجاذب أطراف الحديث ، وكان الحديث عن الأحلام أيضا ، ولكن ليست الأحـــلام المزعجـــة وإنمـــا أحـــلام المستقبل .. كانت أحلامنا كبيرة ولكن ظروف الحياة تقف حـــائلا أمامنا دون تحقيقها .. كنا نحلم بمسكن فخم في منطقة راقية تليق بقدراتنا وإمكانياتنا حيث أعمل أســـتاذة فـــي الجامعـــة وزوجـــي صحفي مرموق وأديب واعد ، ولكن ما نحصل عليه من وظائفنا لا يحقق لنا التغيير الذي ننشده ، بالإضافة إلى مـــا ننفقـــه نحـــن الاثنين سواء على أبحاثي أو على كتبه ومع ذلك كنـــا ســـعداء ، واستطاعت أحلامنا الصغيرة أن تجعلنا نحتمـــل ضـــيق المكـــان وبؤس العيش .. وتساءل أحدنا أو تساءلنا معا نفس السؤال الـــذي كنا نسأله لأنفسنا خلال رحلة الكفاح هذه ..

- إلى متى ؟ .. إلى متى سنظل في هذا العناء .. طريق طويل ممل نقطعه سيرا على الأقدام في الـــذهاب والعـــودة ومعنـــا طفلتنا الصغيرة ، أليس من حقنا أن نستريح بعد طول عناء ؟

يصيح زوجي بنبرة يائسة ممزوجة بالأمل :

- ومع ذلك استطعنا أن نحقق في هذا البيت جانبا كبيرا من أحلامنا .. دكتوراه وخمسة كتب ..

أقول رغما عني وقد نفد الصبر :

- طظ .. سكرتيرتي الخاصة تسكن في بيت فخم في المهندسين ، بل إن عم شوقي الساعي الذي يقدم لي الشاي لديه عمارة ملك ..

- هناك فرق كبير بين المستوى الاجتماعي والمستوى الاقتصادي ..

- ده قصر ذيل ..

أضطر لأقول ذلك مخففة من حدة النقاش حتى لا يتحول إلى شجار وأنا على يقين من أن كلانا ليس له ذنب فيما نحن فيه ..

يطرق زوجي قليلا ، ثم يقول بمرارة :

- اليوم قرأت إعلانا في الجريدة عن حاجة بعض الجامعات العربية إلى مدرسين مساعدين بمرتبات مجزية .. بضعة أعوام نقضيها هناك ثم نعود ومعنا السيارة والمنزل الفخم والمستقبل المضمون .. ما رأيك لو جربنا ؟

رحت أنظر في عينيه لأرى بريق الأمل وهو يختلط بالألم ويتحول إلى صرخة بالرفض نطقتها عيناه قبل لسانه ، فرحت أقول :

- لا .. السفر مرفوض يا أستاذ .. السفر معناه ضياع فرصة عليك في عالم الأدب والكتابة .. فرصتك هنا . إنني لا أطمع في جاه أو سلطان ، بل حياتي معلقة بين صفحات كتاب من كتبك أو مؤلف من مؤلفاتك ..

ألمح في عينيه نظرة سرور وامتنان .. ينظر لي بوله ويقول:

- يا حبيبتي .. تصوري .. كنت أخشى أن تقبلي .. ولكن مستقبلك ؟

أقول بسرعة حتى لا أدعه فريسة لتأنيب الضمير :

- أنا أيضا حياتي هنا .. إن من مصلحتي أن أظل هنا حتى لا تفوتني فرصة الترقية ..

ترتسم على شفتيه ابتسامة .. يضمني إليه مقدرا مدى التضحية التي قمت بها ، فكانت ضمته بمثابة بساط ريح طفت به العالم كله في لحظات قلائل ..

منتصف الليل تماما .. البيت كله نيام وأنا وحدي متيقظة أنتظر الصرخة البغيضة التي ستطلقها ابنتي بعد قليل .. أفكر في الكلام الذي دار بيني وبين زوجي هذا المساء .. أي اثنين إذا جاءتهما فرصة السفر سيتركان كل شيء ويرحلا إلا نحن .. لأننا لا نستطيع أن نعيش بجسد واحد في مكانين مختلفين ..

سنظل في صراع دائم بين الأحلام والواقع .. ليتنا كنا بلا أحـــلام ، ولكنني أعلم أنها ليست بأيدينا ..

آهـــ .. هاهي الصرخة البغيضة تنطلق مدويـــة مـــن قلـــب الصغيرة النائمة لتشل رأسي فأخف إليها ، يلحق بي زوجي إلـــى غرفتها ..

- مالك يا إيناس .. مالك يا حبيبتي .. أنا جنبك أهه ..

لأول مرة أجد الصغيرة تتكلم :

- أشعر أني مخنوقة .. كرهت هذا البيت ، كرهـــت الشـــارع والناس .. زهقت من كل الأماكن ..

- أتكرهين بيتك يا إيناس ؟ البيت الذي فيه بابا وماما ؟

راحت إيناس تكمل بانفعال ، وقد بدأت الدموع تنهمـــر مـــن عينيها :

- نعم كرهت البيت .. أحلم ببيت جميل له حديقة واسعة بهـــا قفص عصافير كبير وشارع نظيف تصطف فيـــه الأشـــجار على الجانبين .. وسيارة كبيرة حمراء ترحمني مـــن عنـــاء السير على قدمي إلى المدرسة .. ليتك يا ماما تدخلين الحلـــم معي ، وأنت أيضا يا بابا حاول أن تعيش حلمي لتراه بنفسك

في الصباح التالي .. كنا الاثنان أمام مبنـــى شـــاهق ، علـــى واجهته وضعت لافتة " سفارة إحدى الدول العربية " ورحنا نشق

طريقنا بين الزحام الكثيف ليتسنى لنا الحصول على عقد العمـــل .. وقد أدرك كل منا أنه لا بد له أن يدخل أحلام الآخرين ليعيش فيها .. حتى ولو كانت " أحلام صغيرة "

تمام يا فندم

- أعطني تمام الكتبة
- صفا .. انتباه .. الكتيبة تمام يا فندم ..
- انصراف

استدار ليعطي أوامره بالانصراف . لم يجد خلفه جنودا ، بل وحوشا تتربص به . تحلقت حوله وهي تزأر في وحشـية تريـد النيل منه . حاول الصياح فلم يستطع تلونت السماء بلون غريـب . امتلأت فجأة بطيور غريبة الشكل ، لم ير مثلهـا مـن قبـل . راحت تحلق فوقه هي الأخرى لتنهش رأسه . أخذ يضرب بيديه وقدميه معا في حركات هستيرية . شيء ثقيل يجسم على صـدره .سحابة عاتية تغشى عينيه . صفير مزعج يملأ أذنيه ؛ هل هـو صوت قطار قادم ؟ .. أم سرب طائرات تتجه نحوه لتقضي عليه .. شعر لوهلة أنه هدف لكل أحقاد العالم .. الصـفير يـزداد .. يزداد .. يصم أذنيه ..

يستيقظ فجأة على رنين المنبه المزعج الذي لا يكل ولا يمل .. تقلب في فراشه .. تمطى .. تثاءب .. أخيرا جلس في فراشه وهو ينفخ في ضيق .. تساءل :

- ألا يمكن أن يخترعوا منبهات أكثر رقة وهدوءا من هذه المنبهات المزعجة ؟

مازال النعاس يغالب عينيه .. فكر في أن يستسلم له ولو لدقائق معدودة .. أتاه صوت زوجته وفاء كالعادة :

- حمدي .. ستتأخر على الوحدة .. الشاويش طلبة ينتظر بالسيارة منذ نصف ساعة ..

سرعان ما انتفض حمدي في فراشه وهو ينفض النوم من عينيه . نحى الغطاء جانبا . وضع قدميه في المداس بطريقة معتادة كأن قدميه تعرف طريقها إليه وسار إلى الحمام ليبدأ برنامجه اليومي الذي يؤديه منذ سنوات طويلة بنفس الترتيب بلا تقديم أو تأخير ..

انتهى من ارتداء ملابسه العسكرية بسرعة .. أسرعت إليه وفاء زوجته وهي تقول :

- لحظة يا حمدي ..

جاءت بقطعة من الصوف مغموسة في مزيل للصدأ .. أخذت تلمع النسر الذي على كتفيه وفوق البيريه ، ثم وضعت بجانب

النسر زرار وهي تنظر له مبتسمة في أمل مكتوم ، فهم حمدي ما ترمي إليه ، تنهد بأسى وهو يلقي بالزرار فوق التسريحة ويعقب:

- هيهات يا وفاء .. كل زملائي في الوحدات الأخرى أصبحوا مقدمين .. ومنذ جاءنا هذا العقيد الدكتاتور وكل شيء توقف

قالت بحسن نية :

- وهل ستسكتون على هذا الحال .. كلموه أو اشتكوه .

نظر لها باستخفاف وعقب وهو يتجه نحو المائدة :

- نشتك من يا وفاء . هيا أيقظي وائل لئلا يتأخر عن المدرسة

تتحرك وفاء هي الأخرى حركات آلية تؤديها كل يوم تصيح بنفس نبرة الصوت لا تتغير اللهم إذا أصابها برد:

- وائل .. قم يا وائل .. الساعة السادسة والنصف .. ستتأخر عن المدرسة ..

يقوم وائل في تكاسل .. يدخل الحمام ليؤدي بدوره نفس الحركات التي يؤديها كل يوم .. وفي الخارج كانت الأم تعطيه التعليمات :

- لا تنس أن تغسل أسنانك يا وائل .. غسيل الأسنان يكون بالطريقة الصحيحة من أعلى إلى أسفل .. جفف وجهك جيدا .. فوطتك على الشماعة الصغيرة .

ينضم وائل بعد ذلك إلى والده على المائدة :

- صباح الخير يا بابا ..
- صباح الخير يا وائل ..

تواصل الأم إلقاء تعليماتها اليومية المعتادة ..

- وائل .. قبل أن تأكل ضع الفوطة على صدرك حتى لا تتسخ ملابسك
- حاضر يا ماما ..

تمتد يد وائل إلى طبق المربى ، تصرخ الأم قبل أن تصل يده إلى الطبق :

- وائل .. البيض أولا ثم الجبن وأخيرا المربى حتى لا تغلق معدتك ..
- حاضر يا ماما ..

قالها هذه المرة بتأفف وضجر وهو يصدر تنهيدة كبيرة ، بينما كان حمدي شاردا غارقا في سحابات الدوامات اليومية التي تلفه منذ خمسة عشر عاما .. فبعد قليل سينزل ليستقل سيارة الوحدة ، وسيشكو له الشاويش طلبة من عناء العمل وسيحدثه عن مشاكله مع بناته ، وزوجته الحامل التي يريد أن يأخذ إجازة ولو يوما واحدا لكي يعرضها على طبيب والعقيد مصطفى الذي لا يرحم ولا يترك رحمة ربنا تنزل .. تصل السيارة إلى الوحدة في الثامنة تماما لا تتأخر لحظة بالرغم من الإشارات والمرور

والزحام ، وكأن سيارة الوحدة تخشى من العقاب هي الأخرى لو تأخرت عن الموعد .. يؤدي له الجندي الواقف بالبـــاب التحيـــة العسكرية ليؤديه بدوره إلى قائد الكتيبة فيردها بهزة سمجة مـــن رأسه دون أن تتخايل على وجهه الأصفر الذي تعلوه زرقة تزيـــد من كآبته ابتسامة واحدة .. وبعـــد أن يبـــدأ الطـــابور يواجهنـــا بقصيدته اليومية العصماء المليئة بالشـــتائم والســـباب واتهامنـــا ضباطا وجنودا بالتقصير والإهمال وأنه لا يوجد بيننا من يطاوله في النظام والضبط والربط ..

هذا هو البرنامج اليومي الذي يتكرر منذ ســـنوات طويلـــة .. تتغير الدنيا بأسرها إلا هذا البرنامج .. ينتبه حمدي على صـــوت ابنه وائل يصيح بحدة لم يألفها منه :

- لأ ..

ينقل حمدي عينيه بين الأم والابن متسائلا :

- ماذا ؟

تصيح الأم بعصبية :

- تصور يا حمدي .. الولد يرفض شرب اللبن .. إنه يقول لـــي لا .. يبدو أنه قد جن ..

ينظر له حمدي نظرة جامدة ويسأله بهدوء :

- لماذا .. ألا تحب اللبن ؟

يرد وائل بلهجة جديدة لم يعتدها الأب :

- بالعكس . أحب اللبن لكنني كرهت التعليمات الصماء التي أسمعها كل يوم . اغسل وجهك جيدا . اغسل يديك قبل الأكل وبعده . اغسل قدميك قبل أن تنام . اشرب اللبن . ستتأخر عن المدرسة . أتمنى أن أتأخر عن المدرسة ولا أقف في طابور الصباح ولو مرة واحدة .. في البيت أوامر وفي المدرسة أوامر حتى النوم بأوامر . لا . لن أشرب اللبن .

كان الأب يستمع إلى ابنه وهو فاغر الفاه ، ثم سأل ابنه سؤالا كأنه يسأله لنفسه :

- أتعرف عقاب من يقول لا ؟

- لا يهمني . لكن المهم أن أعبر عما أشعر به داخلي

ينظر حمدي إلى ابنه لحظات .. يقف .. يتجه نحو الباب .. يخرج من البيت دون أن ينطق بكلمة وسط دهشة الأم والابن ..

يستقل حمدي السيارة .. كان الشاويش طلبة مازال يعرض عليه شكاواه من هذا القائد الظالم المستبد دون أن يلتفت إليه .. بعد قليل يصعد السيارة النقيب محمود والملازم أول شكري .. وهما يقولان :

- اصطبحنا وصبح الملك لله ..

- ألا نسمع اليوم خبرا جديدا عن هذا الطاغية .. مثلا تأتيه مصيبة من السماء أو أن المسئولين يلتفتوا إلى شكاوانا منه فيقيلونه عن منصبه ويريحونا من شره

- يسمع من بقك ..

كان حمدي مازال شاردا يفكر في كلام ابنه ، يحاول أن يجد تبريرا لتغير الولد المفاجئ .. يجد نفسه واقفا في الطابور أمام الكتيبة .. ينزل العقيد أرض الطابور ويبدأ في وصلته اليومية المحشوة بالسباب والشتائم والتهديد والوعيد ، ثم التعليمات المقدسة ..

- صفا .. انتباه .. أشد .. أقوى ..

ثم يواجه الرائد حمدي وهو يصيح :

- سيادة الرائد حمدي .. أعطني تمام الكتيبة ..

دون أن يدري وجد حمدي نفسه يصيح بصوت عال وسط دهشة أفراد الكتيبة : لا يا فندم ..

السوار الذهبي

أنيقة .. جميلة .. مازالت تحتفظ بريها ونضارتها بالرغم من أنها تجاوزت الخامسة والأربعين .. من يراها لا يمكن أن يعطيها سنها الحقيقيَ .. وكثيرا ما يختلط الأمر على الكثيــرين عنــدما يشاهدونها سائرة مع ابنتها الطالبة الجامعية فيظنون أنها شــقيقتها .. هكذا كان انطباع كل من يراها ، وإذا سألتها إحداهن عن سر جمالها النضر كانت تقول :

- يا جماعة ليس في الأمر سر وإنما هو صفاء القلب والصدق مع النفس وراحة البال ، فالوجه لا يعــرف الخــداع ولكنــه يظهر بأمانة ما يخبئه القلب ..

تسكت قليلا ، ثم تضيف بعد إطراقة :

- لا تحسبنني خالية البال أو بعيدة عن الأحزان ، فأنتن تعلمــن جيدا أني ترملت مبكرة ، ولم أتزوج بعد زوجي المرحــوم .

رافضة كل من تقدم لي وتحملت مسئولية الأبناء حتى صـــارا في الجامعة ..

هكذا كانت مديحة ، أو كما كانوا يدعونها مدام "ميمي" امــرأة من الطراز الأول .. فهي سيدة أعمال ناجحة حيث تعمل مــديرة للعلاقات العامة بإحدى الشركات ، وأم رؤوم تحرق نفســها مــن أجل أبنائها عصام وهدى ، فهي أول من يستيقظ في البيت وآخر من ينام فيه .. ، وفوق ذلك سيدة مجتمع ممتازة .. فمنذ اختيارها في مجلس إدارة النادي أدخلت فيه عددا من الأنشطة الهامة لــم تكن موجودة من قبل ولم تخطر على بـــال أي مـــن الأعضـــاء الآخرين ، فصارت محط أنظار الجميع ..

استيقظت مبكرة كعادتها مع أنه يوم إجازتهـــا .. أدركــت أن وقتا طويلا قد مر دون أن تذهب إلى النادي .. ارتدت ملابســها على الفور واختارت زيا يناسب بداية الربيـــع ، ولـــم تـــنس أن تتحلى ببعض ما لديها من حلي مع حفاظها على البساطة وعــدم التكلف ، وهذا ما كان يزيدها جمالا وحيوية ..

قوبلت مديحة بثورة عارمة اختلط فيهـــا الترحـــاب بالعتـــاب لطول غيابها . فراحت تبرر قائلة :

- ما منعني عنكم غير الشديد القوي ..

صاحت أشجان بسرعة :

- أكيد الأولاد ..

ردت مديحة وهي تجلس بينهن :

- معك حق يا أشجان .. امتحانات الأولاد أخذتني من كل شيء حتى من نفسي ها ما أخبار النادي ؟

انطلقت كاميليا مستمرة في ثورتها :

- فاتك نصف عمرك .. في الأسبوع قبل الماضي أجريت مسابقة أجمل تسريحة شعر ..

ضربت المنضدة بيدها :

- يا خسارة .. ومن الفائزة يا ترى ؟ ..

هزت كاميليا رأسها وراحت تداعب خصلات شعرها بأناملها وهي تعقب :

- أخجلتم تواضعنا ..

قبضت مديحة على خصلة من شعرها وقالت مداعبة:

- آه لو كنت موجودة في هذه المسابقة ..

صاحت ثرية :

- أنت دائما يا مديحة حظك في رجليك .. جهزي نفسك للمسابقة القادمة ..

قالت في سخرية :

- أرجو ألا تكون مثل المسابقات السابقة .. أجمل حذاء وأجمل دبوس شعر وأجمل حقيبة يد ..

- لا .. هذه المسابقة أثقل وأهم بكثير .. نحـن نريـد أجمـل سوار ..

كانت المتحدثة كاميليا ، ثم أضافت فـي محاولـة لإغاظـة مديحة:

- أقترح عليك يا حبيبتي أن تنسحبي من الآن .. لأنني أعد لكم مفاجأة حقيقية فأجمل سوار عندي في البيت أحضـره لـي أخي في الشهر الماضي وهو عائد من الهند .. لـو رأيتمـوه سيغمى عليكم ..

هزت مديحة رأسها في تحد :

- وأنا قبلت التحدي .. وأرى ألا نلتـق حتـى يحـين موعـد المسابقة ، لكي لا يبوح أحد بما لديه من سوار ..

- اتفقنا ..

قلنها جميعا في تحد .. وانفض الجمع وكل منهن يفكـر فـي السوار الذي سيذهل العقول والألباب ..

عادت مديحة إلى البيت على عجل ، وهـي تشـعر بسـعادة غامرة .. فقد تذكرت على الفور سوارها الـذهبي النـادر الـذي أهداه إياها زوجها المرحوم .. كان قد اشتراه من مقتنيـات أحـد

القصور القديمة بباريس ، فهو يعد بحق تحفة فنية رائعة ، علاوة على قيمته الأثرية ..

فتحت خوان الملابس .. أخرجت علبة قطيفة حمراء علاهـا غبار السنين .. تذكرت آخر مرة ارتدته في حفل تكريم المرحوم حمدي .. كادت العيون تخرج من محاجرها عليه .. اغرورقـت عيناها بالدموع .. مسحت بيدها دمعتين انحدرتا علـى خـدها .. أطلت إلى السوار وارتسمت على شفتيها ابتسامة ثقة .. مهما بلغ سوار كاميليا أو غيرها فلن يصل بأي حال مـن الأحـوال إلـى روعة وأبهة هذا السوار .. أنا الفائزة بلا أدنى شك ..

هكذا حدثت نفسها بصوت مسموع ، ثم أسرعت إلى الهـاتف .. التقطت السماعة .. أدارت قرص التليفون وانتظرت لحظة :

- آلو .. عزت .. أنا مديحة .. الله يسلمك يا عزت .. مشـاغل والله .. اسمع يا عزت أريدك أن تأتيني حالا .. أيـوة نفـس الفيلا .. سأنتظرك .. لا تتأخر .

وضعت السماعة ، ثم ألقت نظرة متفحصة على السـوار .. أعادته بعد ذلك إلى مكانه الأثير داخل العلبة القطيفة .. راحـت تذرع الحجرة جيئة وذهابا في قلـق .. أمسـكت بالعلبـة ثانيـة وأخرجت السوار للمرة العاشرة أو العشرين ..

ما أن سمعت جرس الباب حتى طارت إليه وهي تصيح :

- لم تأخرت يا عزت ؟ ..

دخل عزت وهو يحمل حقيبة سوداء فاخرة :

- مسافة السكة يا هانم ..

قادته إلى حجرة الجلوس ، وبعد أن جلس صاحت وهي تنظر إلى الحقيبة :

- يبدو أن معك أشياء جديدة ..

صاح وهو يفتح الحقيبة :

- تفضلي شاهدي بنفسك ..

جالت بعينيها بين أطقم المجوهرات التي تراصت بانتظام داخل الحقيبة ، ثم أغلقت الحقيبة في غير اهتمام وصاحت :

- مش قد كده ..

اعتلت إمارات الدهشة وجه عزت الجواهرجي ، كاد يحتج لولا دخول الخادم تحمل صينية العصير ، تناولت مديحة منها الصينية وصرفتها بإيماءة ثم قالت محدثة عزت :

- عزت .. هل تتذكر سواري الذهبي ؟

- طبعا يا هانم طبعا .. التحف النادرة لا تنسى بسهولة

- أريدك يا عزت أن تنظفه وتعيد صقله ، فإذا كان في حاجة إلى لمساتك الفنية فلا تبخل عليه ..

- أنا في خدمتك يا هانم ..

باتت مديحة ليلتها لم يغمض لها جفن .. وراحت تتخيل السوار وهو يبرق في عيون الحاضرين ، لم تكن عابئة بالكأس ولا بالفوز في المسابقة بقدر ما كانت تحلم بلحظة إعجاب تراها على وجوه الموجودين ..

انتفضت في فراشها وأسرعت إلى التليفون :

- آلو .. عزت .. نسيت أن أخبرك أن السوار به فص سقط ، أرجو تثبيت آخر غيره ..

طمأنها عزت إلى أنه اكتشف سقوط الفص وقد قام بتثبيت فص جديد مكانه ، بل إنه سوف يسلمها إياه كأنه جديد ، ومع ذلك لم تهدأ مديحة . كل حين وآخر تفزع إلى الهاتف :

- آلو عزت .. أرجو أن تركب للسوار سلسلة صغيرة ومحبس أمان ..

- عزت .. لا تنس الياقوتة الحمراء التي حدثتك عنها المرة السابقة .. كما قلت لك تتوسط السوار وتحيط بها فصوص من الألماظ الحر .. الحر يا عزت

- عزت نسيت أن أخبرك بألا تطلع إنسانا بأمر السوار .. دعه سرا بيننا ..

وبالرغم من التكتم الشديد الذي فرضته مديحة ، فلم تستطع أن تمنع تسرب الخبر إلى المتنافسات في النادي .. فقد عرف

الجميع أن مديحة تقوم بإعداد سوار للتقدم به إلى المسابقة .. ولم يكن لهن حديث إلا عن سوار مديحة الذي سيذهل العقول والألباب ..

وضعت مديحة سماعة التليفون بعد مكالمة سريعة مع كاميليا التي طلبتها لتخبرها أن موعد المسابقة غدا ، وهي في الحقيقة كانت تبغي معرفة معلومات عن سوارها الذهبي الذي ستظهر به غداً في المسابقة ، لم تعطها مديحة أية معلومات وأخبرتها أنها تعلم مسبقا موعد المسابقة وليست في حاجة إلى تذكرة وراحت تتأمل السوار أمامها بإعجاب شديد وهي تضحك .. انتبهت مديحة على دخول ابنها عصام الحجرة مطرقا .. أغلقت علبة السوار وصاحت منزعجة :

- عصام .. ماذا بك ؟
- لا شيء يا ماما ..

قال عصام هذا وهو مطرق في الأرض زائغ العينين ، تتبعه أخته هدى لا تقل عنه انزعاجا :

- ماذا بكما .. تكلما ..

تكلمت هدى وهي تسترق النظر بين أمها وأخيها :

- الحقيقة يا ماما .. عصام يفكر في الهجرة إلى كندا ..

صاحت الأم معترضة :

- لا .. أنا لم أضح بشبابي وعمري ، وأعلمكم أفضـــل تعلـــيم حتى تتخرجا من كلية الطب وفي النهاية تتركاني وحيدة ..

تكلم عصام بصوت يائس :

- كلية الطب ؟ .. ليتني تعلمت صنعة أفضل من انتظار خطاب القوى العاملة حتى ينتهي بي المقام في وحدة صحية مدرسية براتب ضئيل لا يسد رمقا ..

قالت الأم :

- ألست مثل زملائك الذين تخرجوا في نفس الكلية ؟
- زملائي .. منهم من تعين معيدا ، ومنهم مـــن ســـافر إلـــى الخارج ليكمل دراسته هناك ، ومنهم من فتح عيادة ..
- إذن فلتفتح عيادة .

رد عصام :

- العيادة تحتاج إلى مصروفات كثيـــرة .. وأنـــا أعلـــم جيـــدا الظروف الصعبة التي نمر بها بعد وفاة بابا .. بـــالرغم مـــن محاولاتك كي لا نشعر بها ..

أضافت هدي مؤيدة :

- كفاك تضحية من أجلنا يا ماما .. دعينا نعتمد على أنفســـنا .. أنا تسلمت اليوم خطاب القوى العاملة سأعمل مشرفة صـــحية

في إحدى الحضانات .. أما عصام فدعيه يسافر ، فقد يكـــون حظه في الخارج أفضل من حظه هنا ..

صاحت الأم في اعتراض وقد لمعت في عينيها دمعتان :

- لا يمكن أن ينجح عصام هناك إلا بعد أن ينجح هنا .. يجــب أن يفتح عصام

عيادته .. وأنت أيضا يا هدى سوف تكون لــك عيــادة لعــلاج الأطفال بالإضافة إلى عملك في الحضانة ..

صاحا معا في دهشة :

- عيادتان دفعة واحدة .. نحن في حاجة إلى ثروة ..

ضمتهما مديحة إلى صدرها وهي تقول في حنان :

- لا تحملا هما .. إنني أرى أمامي الآن طبيبــين نــاجحين ، أستطيع أن أفخر بهما أمام الجميع .. هذا هــو اليــوم الــذي أنتظره من زمن ، وها قد تحقق .

قبلاها بحب وهما يدعوان لها ، راحت مديحة ترمقهما حتـــى انصرفا ، ثم مسحت دمعتين انحدرتا على خديها رغما عنهــا .. امتدت يدها إلى الهاتف .. أدارت قرصه .. انتظرت لحظــات ، ثم صاحت :

- عزت .. تعال حالا .. أريدك في أمر هام ..

مساء اليوم التالي .. احتشد النادي بالمدعوات وقد تلألأت أيدهن وصدورهن بالأساور والمجوهرات .. وقد أعلن عن بدء المسابقة .. وراحت الواحدة تلو الأخرى تعرض سوارها ، بينما كن جميعًا يترقبن في شغف وشوق صعود مديحة على المنصة لتعرض سوارها ، ولكن مديحة لم تصعد .. ظلت جالسة في القاعة وسط المدعوات ، عن يمينها ويسارها جلس ابناها عصام وهدى .. لم يبق سواها .. حتى صاحت كاميليا :

- مديحة .. أين سوارك ؟

تحسست مديحة بيد مرتعشة موضع سوارها ، وقد ارتسمت علي وجهها ابتسامة واثقة ، ثم أحاطت بذراعيها ابنها وابنتها وقالت :

- هذان هما قرطي وسواري ..

علا التصفيق وعانقها الجميع .. بعد قليل أعلنت نتيجة المسابقة وكانت مديحة هي الفائزة بأجمل سوار .

الذبابة

تطن في أذني طنينا مزعجا ، تحوم حولي في دائرة لا تنتهي . كلما حاولت إبعادها تلاحقني أينما ذهبت . امتدت يــدي إلــى المضرب ، هوت عليها بكل قوة ، أفلتت هذه المرة . لا بــأس . لن تفلت في المرة القادمة .

عادت تطن من جديد بحدة وعناد وهي تحرك جناحيها إلــي أعلى وإلى أسفل وتلف قدميها الأماميتين كل منهما على الأخرى وتحرك رأسها تجاهي كأنها تقول لي . ها قد انتصرت عليــك ، فلن تصيبني ضرباتك .

أظلمت الغرفة وفتحت النافذة لعل الشعاع النافذ من الخــارج يجذبها إليه ، ولكنها أبت إلا أن تتطفل على نور أفكاري وتقــتحم علي وحدتي فتحيل هدوءها ضجيجا .

أ ذبابة هي أم شرك نصب لي ؟ . لم تكن ذبابه عاديـــة ، أو على الأقل بالنسبة لي . رغم ضآلتها ووهنها فكنت أراها ضخمة رهيبة .

خفت الطنين وغابت الذبابة عـــن عينـــي فأخرجـــت قلمـــي وأوراقي ورحت أخط بعض سطور هفت على خاطري ..

لكل منا عالمه الخاص أو مياهه الإقليمية التي لا يســـمح لأي إنسان مهما كان أن يقترب منها . إنها الحدود الفاصلة بيننا نحـــن البشر .

عادت الملعونة من جديد بطنينها المزعج وصورتها المقـــززة تقتحم خلوتي وتعكر من صفوي وتقطع حبل أفكـــاري . وقفـــت علي الورقة وراحت تقترب من سطوري لتفك طلاسمها وتعرف فحواها ، فلو كان للذباب لغة لتحدث بما يجول فـــي خـــاطري .. جن جنوني . حاولت إبعادها بكل وسيلة . لم يفلـــح معهـــا مبيـــد الحشرات الذي اشتريته خصيصا لهـــا . باغتهـــا بضـــربة مـــن المضرب وظننت أنني تخلصت منها إلـــى الأبـــد . دق جـــرس التليفون أسرعت إليه . كانت لمياء .. أفي هذه الساعة المتـــأخرة من الليل ، فليس الوقت مناسبا للحديث . ولكن مع لمياء الأمـــر مختلف وكل شيء مباح . حاولت أن أتخلص منهـــا ولكـــن كـــل محاولاتي باءت بالفشل . وكعادتهـــا بـــدأت حـــديثها بالشـــكوى

والصداع المستمر الذي لا يفارقها ليل نهار ، ثــم انتقلــت إلــى الحديث عن ليلى زميلتنا في العمل وشجارها المستمر مع زوجها ، وتهاني التي عبست في وجهها بالأمس ولم ترد السلام ، وابنــة جارتها التي لمحتها مع شخص غريب على الكــورنيش . حتــى أتت للسؤال الذي أتوقعه منها كلما التقينا :

- ماذا تفعلين الآن ؟
- لا شيء
- أ معقول هذا . كل إنسان لابد وأن يفعل شيئا حتى ولــو لــم يفعل أي شيء .
- أفكر .
- تفكرين في ماذا ؟ بحث جديد ؟
- مجرد تجميع مادة من قراءات مختلفة .
- ما هي الكتب التي تقرئينها . ؟
- أف . لا أستطيع أن أحتمل ..
- ما هذا الذي لا تستطيعين احتماله .
- أنـــــ .. إنها الذبابة اللعينة التي تطاردني دائما ولــم تفلــح محاولاتي معها ..

وسكت فجأة . ظننت أنها ستكف عن أسئلتها المتلاحقة التــي تبغي منها جمع أكبر قدر من المعلومات عن حياتي حتى داخــل

غرفة نومي وبين ثنايا أفكاري فإذا بها تعود مرة أخرى لتمارس هوايتها المذمومة معي :

- لماذا سكتي ؟

ازدادت إصرارا أن تحوم حول هذا الصمت لكي تعرف أسبابه . عاد زوجي من الخارج ليجدني مازلت ممسكة بسماعة التليفون وهمس في أذني :

- يجب أن تضعي حدا لهذا التطفل . لقد اتصلت بي صديقتك لمياء لكي تعرف مقدار العلاوة التي تقاضيتها . هل هذا معقول ؟

كانت لمياء مازالت تحاول معرفة أسباب الصمت وتلح على أكثر :

- آلو . آلو . سهام . لماذا لا تردين . هل عاد شوقي ؟ يا بختك . لقد حصل اليوم على علاوة تشجيعية . بينما رؤوف زوجي لم يحصل على أي علاوات منذ خمس سنوات .

- أف .

قلتها للمرة العاشرة أو العشرين أو المائة دون جدوى . ووجدت نفسي دون أن أدري أصرخ :

- لمياء لا شأن لك بي . لك حياتك ولي حياتي الخاصة . لا تكلميني بعد اليوم .

في اليوم التالي كنت أقدم إلى المدير طلبا بنقلي إلى قسم آخر بعيد . وكأنني أزحت عن كاهلي عبئا ثقيلا ظل يــؤرقني لفتــرة طويلة . ومنذ ذلك الحين لم أعد أراها .. اختفت الذبابة إلى الأبد.

صورة طبق الأصل

هل أكون مبالغة عندما أقول إن العيد عندنا أفضل منه في أي مكان آخر ؟ مثلما نردد دائما أن شمسنا هـــي أجمـــل الشـــموس وجونا أفضل الأجواء . حتى لو كنت مبالغة ، فهذه هي الحقيقة .

فالعيد عندي هو صوت المذياع يعلن بدايته ، وغناء أم كلثوم تشدو لليلة العيد ، وحذاء جديد أحتضنه في سريري ، وخـــروج المصلين وهم يرددون

" الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا "

وأطباق الترمس والحلبة والحمص التي أعدتها أمي منـــذ أيـــام ، ودقة علي باب البيت من مهنئين ، وزيارات الأهل والخلان العم والخال والجد والجدة .

ترتسم هذه الصورة في مخيلتي منذ أن كنت طفلة ، وأنقلهـــا بدوري إلي أطفالي الذين لم يشعروا بالعيد كما شعرت بـــه أنـــا لوجودهم معي خارج البلاد .

لم أر هذه الصورة في أي بلد زرتها ورحت أرسمها في أذهان صغاري الذين راحوا يحلمون بعيد يقضونه بين أحضان الوطن ، وقررت أن أحقق لهم الحلم .

التففنا حول المذياع لنستمع إلي ليلة العيد من أم كلثوم وراح كل منهم يحتضن حذاءه ، وعندما فرغ المصلون من صلاة العيد هرعنا إلى النافذة لنردد معهم " الله أكبر كبيرا " ، وجلسنا ننتظر .. انتظرنا كثيرا ولم يدق أحد علينا الباب وبكي الأطفال .. أين العيد ؟ أين الصورة الجميلة التي رسمتها لنا ؟

قلت لهم :

- قد يكونوا مشغولين أو متعبين ، فلنزورهم نحن .

ذهبنا علي عجل إلي البيت الكبير ، بيت أبي وأمي ، الذي نسجت فيه تلك الصورة الجميلة ، فإذا بأمي وحيدة بعد رحيل أبي تبكيه وتنعي الأيام التي ولت معه ، وتشكو من أن أحدا لم يزرها من أخوتي .

عاد الأبناء يسألونني بصوت أوشك علي البكاء :

- أين العيد يا أماه ؟ أين عمي شريف وخالي حسين ؟

قلت لهم :

- إذا لم يأت العيد فلنذهب إليه نحن .

أخذتهم وذهبنا إلى هناك . وجدناهم .. ولكننا لم نجـد العيـد لديهم . الكل مشغول بمشاكله ، والعيد أصبح بالنسبة لهـم ترفـا ومضيعة للوقت .

وعدنا إلي البيت ..تملؤني الحسرة ودموع الأبناء تهتف بي :

- أين هو العيد يا أماه ؟

وشعرت أن الصورة التي ظللت أرسمها في مخيلة أبنائي قـد تشوهت مثلما ضاعت معالمها في مخيلتي . لا . لابد أن أحـافظ عليها . ليس في أذهانهم فحسب وإنما في ذهني أنا أيضا . نزلت مسرعة إلى الشارع . اشتريت بعض اللعب والهدايا علقت عليها بطاقات بأسمائهم وتركت العنوان . عندما صعدت إلـى المنـزل وجدتهم مازالوا يبكون :

- أين العيد ؟ نريد العيد ..

دق جرس الباب . تعلقت عيونهم بالباب . أسـرعوا نحـوه . ليطالعهم عامل المحل يحمل الهدايا من عمهم شـريف وخـالهم حسين . وارتسمت على وجوههم الفرحة . وراحوا يصيحون في سعادة :

- لقد جاء العيد . جاء يا أماه .

كانت هذه هي المرة الأولى التي أكذب فيها ، ولكنهـا كذبـة بيضاء رسمت الفرحة على وجوه الأبناء وأبهجت قلوبهم ، حتـى

أنا صدقتها . وظلت صورة العيد كما رسمتها في أذهانهم وقلوبهم " صورة طبق الأصل " .

العوض

تدور وتدور ، تحلق في الفضاء العريض ، تغـرد بصـوت عذب ، ترفرف بأجنحتها الرقيقة ، تصنع لنفسها علما خاصـا .. نسمة ندية تتهادى في هيام ورقة من شجرة إلى شـجرة تـداعب الأوراق والأغصان كراقصة باليه محترفة إذا لامست جمادا تدب فيه بريق الحياة وإذا صافحت نبتا لا يملك إلا أن يـرقص معهـا ويغرد مثلها .

هكذا قدر لها أن تأتي إلى الوجود مختلفة عن كل أطفال الدنيا ، لم يرحب بها أحد ، الجميع كانوا ينتظرون ولدا وعندما جـاءت هي انفجرت الأم باكية وهي تزف إلى زوجها الخبر المشئوم :

- بنت
- اللي يجيبه ربنا كويس
- كنت أتمنى أن أنجب لك ولدا عوضا عن الذي راح
- كل شيء قسمة ونصيب

وتركزت عيناه على صورة ابنه الفقيد المعلقة فوق رأس الأم كأنه يقول له كان عندي أمل أن تعود . وسمع صوتها يقول بصوت أشبه بالنحيب :

- لم يعد أكثر من مجرد صورة معلقة على الحائط .

انتبهت على صوت العوض أو بالأحرى تلك الوليدة الصغيرة التي جاءت في غفلة منهما ، ماذا أرضعك الآن الهم والحزن والنكد ؟

لم تهتم الأم بإحضار ملابس للبنت فقد كانت كل الملابس التي أحضرتها " ولادي" . كأنها كانت واثقة من أنها ستنجب ولدا . تذكرت الأم بعد أيام أنها لم تختر اسما لمولودتها ، ربما لأن قائمة الأسماء التي اختارتها لذكور، ومن بينها الاسم القديم الذي كان يحمله الاسم الفقيد . فأطلقت على ابنتها أي اسم جاء على مخيلتها ، وكما ولدت منزوية عاشت منزوية في ركن قصي من البيت لا يلتفت إليها أحد ولا يشعر بوجودها كائن من كان .

لم يشعر أحد بجمالها الملائكي ولا رقتها ولا عذوبتها ، فلم يكن أحد يهتم بها ، إذا غابت لا تجد من يبحث عنها ، وعندما تحين ساعة النوم كانت تنزوي عن الأنظار في أي ركن يسمح باستقبال جسدها الصغير فتلوذ به حتى الصباح .

ذات يوم دخلت على أمها وهي في حالة من الذعر لاحظت أمها عليها ذلك فتعجبت :

- ماذا بك ؟

لم تكن الأم تدرك أن ابنتها تركت مرحلة الطفولة وأدركت فترة المراهقة ، وأشرفت على طور الأنوثة ، وأن هناك تغيرات جديدة طرأت على ابنتها ، ضمتها الأم إلى صدرها ، مسحت العرق المتصبب على جبهتها ، راحت تتطلع إلى وجهها ، لم تدرك أن ابنتها جميلة سوى اليوم . طمأنتها الأم أنها كبرت وأصبحت فتاة صغيرة . لكن النزيف لم يتوقف ، لم تجد الأم بدا من الذهاب إلى الطبيب . طمأنها الطبيب هو الآخر بابتسامته المعهودة :

- ألست امرأة وتفهمين ما حدث لابنتك هذا أمر طبيعي يتكرر كل شهر .

مر شهر ومازال النزف مستمرا وتبدل الجمال إلى شحوب واستحال الجسد الأنثوي النابت إلى شبح ضامر ممدد بلا حراك لا تسمع في الغرفة سوى أنفاس لاهثة تتلاحق . تذهب الأم إلى طبيب آخر ، ما أن يفحص الفتاة حتى تعلوه نظرة قلق :

- لماذا تأخرتم حتى الآن ؟

بدأ يصدر أوامره :

- جهزوا المحاليل ، علقوا أكياس الدم ، أعدوا العلاج الكيميائي

تضرب الأم كفا بكف . هل كانت تحلم طول هذه المدة . ما هذا الصوت الذي يتردد في صدرها ، نفس الحشرجة التي سمعتها من صغيرها وهو يموت منذ اثني عشر عاما . تجري هنا وهناك تستغيث بالطبيب والممرضات حتى بعمال المستشفى ، كان الكل يمر يلقي نظرة يائسة وينصرف .

تنظر الصغيرة إلى عيني أمها وترسم بصعوبة ابتسامة بريئة وتهمس :

- أمي قبليني ..

تضمها الأم إليها وتغرقها بالقبلات . تشعر أن شيئا قويا يخرج منها . الجسد الدافئ أصبح باردا كالثلج ، العينان النجلاوان غارتا وسكنتا في لحاظهما ، الابتسامة العذبة ذابت فوق شفتين ذابلتين . سكنت الأنفاس إلى الأبد

تنظر الأم إلى ابنتها وتصرخ :

- سامحيني يا ابنتي . عليه العوض ومنه العوض .

الصفعة

عفريتة شقية معجونة بماء العفاريت . اللعب واللهو بالنسبة لها كالماء والهواء ، أما كتاب المدرسة والكراسة والقلم فهم ثقيل لا تستريح نفسها إليه وبينها وبينه عداوة منذ أمد بعيد ، لا تعلم منذ متى ؟ ربما منذ جاء إليهم الأستاذ صفوت أبو العلا مدرس الحساب ، تجلس في الفصل مثلها مثل الدرج التي تجلس عليه . تظل تتثاءب طول الحصة وهي تدس رأسها في الدرج حتى لا يراها الأستاذ صفوت ويطلب منها القيام للإجابة أو للتسميع ، وبالطبع ستظل واقفة كعادتها لا تجرؤ على البوح بالإجابة حتى ولو كانت تعرفها . وستكون أضحوكة الفصل ومصدر سخريتهم طوال النهار .

هذه أنا . صفاء السيد شهبول .. في سنيها الأولى ..

كثيرا ما كنت أتساءل فيما بيني وبين نفسي .. ما أهمية أن نتعلم ؟ لماذا نستيقظ يوميا في هذه الساعة المبكرة من الصباح

لنذهب إلى المدرسة ، ونظل نسمع كلاما يصدع رؤوسنا . حتى المدرسون لم أجد فيهم يوما من يشجعني أو يشعرني بأهميتي فكنت أنزوي في مكاني الأسير في آخر الفصل - في منأى عن عيون المدرسين

وكان يوم الخميس هو أحب الأيام إلي قلبي - خاصة الحصة الأخيرة فبعد دقائق سأعود إلي البيت لأمرح وألهو كما يحلو لي . يومين كاملين . فأنام وأستيقظ كما أشاء ولن تهزني يد أمي في الغد لتوقظني وهي تنعتني كعادتها بالكلمة التي أمقتها مقتا شديدا " يا كسولة " ..

وها قد جاء يوم الخميس وكنت في أوج سعادتي ، ولكن وقع ما كنت أخشاه .. مد الأستاذ صفوت بصره إلي وكأنه يقصدني بالذات .. أعاد علي السؤال الذي لم أسمعه في غفلتي مرة ومرات ووقفت كعادتي ، لم أحر جوابا توقعت أن يكون العقاب كما ألفته من الأستاذ صفوت أبو العلا كالزجر والشتم والتأنيب والتذنيب طوال الحصة ، ولكن كان حكم الأستاذ هذه المرة قاسيا للغاية .. أشار إلى ماهر - وهو من أنبغ التلاميذ - لكي يجيب على السؤال . وبالطبع كر ماهر الإجابة كرا كأنه يقرؤها من كتاب . فإذا بالأستاذ صفوت يأمر ماهر بصفعي على وجهي .

كان أهون علي لو صفعني المدرس بنفسه . تردد ماهر . عنفه المدرس بشدة .. هدده إن لم يضربني فليضربه هو بنفسه .. ولم أدر إلا والدنيا تدور بي علي أثر لطمة قوية من يد ماهر وأحسست أن بريقا قويا كاد يخطف بصري . وتحجرت الدموع في مقلتي ، ولم تسمع أذناي ضحكات التلاميذ من حولي .

دق جرس الحصة حاولت أن أتحرك من مكاني فلم أستطع ، تمنيت لو لحقت به لأرد له الصفعة ولكن أبت قدماي أن تتحرك . عدت إلي البيت ، لم يشعر أحد بالمنزل بعودتي . انزويت في حجرتي ، لم أكن أبكي بل أفكر ، لأول مرة يعمل عقلي ، فلم أعتد أن أستعمله في شيء قبل اليوم ، استعملته فقط في الأخذ بالثأر والانتقام .

لم أنم ليلتها قضيت الليل طوله أحفظ الدرس الجديد أذاكر بهمة ونشاط بعد أن وجدت هدفا أسعي إليه حتى ولو كان هذا الهدف صفعة أردها علي وجه من صفعني .

انتظرت يوم السبت بصبر نافد ورحت أعد الساعات وكأنني أنتظر يوم العيد . يوم أن أثأر لكرامتي التي أهدرت أمام جميع التلاميذ .. وجاء اليوم الموعود انتبهت لكل كلمة يفوه بها المدرس . وجاءت اللحظة التي أنتظرها قبل نهاية الحصة عندما طلب

الأستاذ صفوت من غريمي اللدود ماهر أن يجيب على أحد الأسئلة ولم يكن ماهر مستعدا . فأخفق في الإجابة ..

يا لفرحتي .. أنا . أنا .. ظللت أرددها بحماس ونشاط غير عاديين لفت انتباه الأستاذ صفوت فقال كما لو كان واثقا من إخفاقي :

- قولي يا صفاء ..

ووسط دهشة الجميع رحت أجيب بسلاسة ومهارة ولدهشتي وجدت الأستاذ صفوت أبو العلا يهز رأسه في امتنان وهو يقول:

- أحسنت يا صفاء . اجلسي .

ودارت الدنيا أمام عيني .. لا . لم يكن هذا الذي أريده .. أين مكافأتي ؟ .. أين الصفعة التي ظللت أحلم بها منذ يوم الخميس .. وانفجرت في البكاء ..

- ما الذي يبكيك يا صفاء ؟ أتبكين لأنك أجبت صوابا ؟ لماذا لم تبك إذن على أخطائك في المرات السابقة ؟

قالها الأستاذ صفوت وكأنه يلوم كبريائي .. بينما ردد التلاميذ:

- هذه أول مرة تجيب فيها صفاء صوابا يا أستاذ ..

- لا شأن لكم بها وانتبهوا للدرس ..

مرت سنوات حتى أنهيت دراستي الجامعية . ولكن ظل هناك شئ ما يؤرقني وجاء يوم تسلمي العمل في إحـــدى الشـــركات . ذهبت متأنقة . دخلت مكتب المدير الذي مد يده مصـــافحا إيـــاي متمنيا لي التوفيق في عملي الجديد . وضغط المدير علـــي أحـــد الأزرار ليدخل بعد قليل شاب عرفت أنه ســـكرتيره الخـــاص ، وانتبهت علي صوت المدير يقول محدثا الشاب :

- أستاذ ماهر ..خذ الآنسة صفاء إلي مكتبها وعرفهـــا بطبيعـــة عملها .

والتفتت إليه وأنا أمد له يدي مصافحة ، وما أن وقعـــت عينـــاي عليه حتى صعدت الدماء إلي رأسي بقوة وشعرت بنبضات قلبـــي تدوي ، حتي كاد يخرج من بين ضلوعي وكأنني سيغمى علي .. وارتفعت يدي لتتحسس وجهي ولم أدر إلا بصرخة تـــدوي فـــي المكان .. كانت صرخة ماهر .

وتركته يتحسس وجهه وسط ذهول رئيس العمل الذي أخذ ينظـــر لي وكأنني مجنونة وراح يغلق ملفي ، بينما خرجت مـــن مكتـــب المدير بلا رجعة ، ربما فقدت وظيفتي ولكنني شعرت يومها فقط بأنني ثأرت لكرامتي الجريحة وكبريائي المهدر . لقد رددت لـــه الصفعة ..

الشراية

دخلت زيزي المكتب في أوج " شياكتها " وتألقها تتبختر في فستان من الحرير الطبيعي بلون برتقالي ومحلى بشرائط من " الساتان " الأسود على الصدر ، والتفت حولها الزميلات وقد تعالت أصواتهن :

- مش معقول . يجنن يا زيزي . بكم هذا الفستان ؟ جاهز أم تفصيل ؟

تجيب زيزي بإيماءة أو ابتسامة واثقة دون أن تعطي إجابة شافية على أسئلتهن .. ويظل الحديث طول اليوم ممتدا حول فستان زيزي الجديد أو حقيبتها أو حذائها ..

هكذا عرفنا زيزي مع كل جديد تبرق كما الذهب وتشع مثل الشمس . الفستان لا ترتديه إلا مرة واحدة ، والحقيبة لا تحملها مرتين ، والحذاء الذي يدخل قدمها مرة لا يعود إليه ثانية ، فالشراء عند زيزي غيره عند أي امرأة أخرى . فهو ليس وسيلة

لإشباع حاجتها الضرورية وإنما غاية لاستكمال صـورة الـذات لديها . حتى أطلقنا عليها جميعا لقب " الشراية "

حتى حديثها لا يخلو من موضوعات الشـراء والجديـد فـي الأسواق والفصال الذي تجيده لخبرتها في هـذا المجـال ، فـإذا تطرق الحديث في غفلة منها إلى الثقافة أو كتاب جديد ذي أهمية أو مناقشة حول شخصية مرموقة يدور حولها الحديث هذه الأيـام . تمل ويتصدع رأسها وينتابها غثيان ، فإذا لـم تسـتطع تغييـر مجرى الحديث إلى ما تهواه تنسل من الجلسة في صـمت . وإذا لامها أحد لتركها المجلس تبرر قائلة بقولها المأثور :

- يا عزيزاتي أنا كالفراشة أحلق كما أشاء في أي مكان وقتمـا أرغب .

اليوم هو العاشر من الشهر تأخر الصراف على غير عادته ، كل منا له التزامات أخرها تأخر الصراف . الجميع متضايقون . الكل ينفخ ويزفر ، أما زيزي فالأمر مختلف بالنسبة لهـا ، لـن أكون مبالغة إذا قلت إنها أوشكت على الجنون أو أن الجنون قـد أدركها بالفعل .. تارة تجلس واضعة يدها على خدها وتبدو فـي عينيها الذابلتين نظرة منكسرة وعلى وجههـا علامـات اكتئـاب واضحة ، وتارة أخرى تروح وتجيء في عصبية " ليست علـى حام ولا على بارد " وكأنها تنتظر لحظة الولادة . كل حين وآخر

تقلب كفيها ظهرا لبطن وهي تنظر لنا بطرف عينها في بؤس وتقول بصوت أوشك على البكاء :

- ألم يأت بعد ؟

من يصدق أن زيزي " الشراية " تظل ما يقرب من أسبوعين لا تقرب محلا تجاريا واحدا ولا تمارس هوايتها الوحيدة في الحياة .. لا .. ليست هوايتها بل شغلها الشاغل عالمها الخاص الذي تجد فيه نفسها وتشعر فيه بأهميتها . وبأنها امرأة مختلفة .. أسبوعان ارتدت فيهما ما ارتدته من قبل حتى أن زميلاتها بدأن يعلقن :

- زيزي . أليس هذا هو الفستان الذي ارتدته يوم اجتماع المدير ؟ وهذا الحذاء " الهافان " رأينه يوم حفل الشركة . وهذه الحقيبة ...

فكانت تطرق في الأرض واجمة دون أن تجيب وكأنها ارتكبت إثما ..

أخيرا جاء الصراف وكانت زيزي أولنا إليه . ما أن لامست يدها النقود حتى غاصت ولم نرها بعد ذلك .. كل منا تفكر .: ما الذي سوف تشتريه زيزي ذهبا أم ملابس أم ...

مرت ثلاثة أيام انقطعت فيها زيزي عن العمل وكانت مصدرا لتفكهنا خلالها فمن قالت إنها ذهبت لتشتري من باريس

وأخرى قالت إنها تنتظر عند الخياطة حتى تنتهي من فستانها الجديد وثالثة قالت إن زيزي حدثتها سرا عن خاتم سولتير ستأتي به يوم السبت وستقلب به الشركة رأسا على عقب .

جاء يوم السبت وجاءت معه زيزي ، لكنها ليست زيزي التي نعرفها وكأن شيئا خطيرا قد ألم بها . كانت ترتدي فستانا طالما ظهرت به وحذاء ارتدته مرات ومرات ، عيناها ذابلتان وجهها شاحب وجسدها هزيل وعلت الوجوه الدهشة :

- ماذا بك يا زيزي ؟
- لا شيء .

قالتها زيزي باقتضاب وهي تكتم عبرات مخنوقة في حلقها .. عدنا نسألها :

- ماذا اشتريت هذا الأسبوع ؟

رفعت عينيها المنكسرتين في وجوهنا وقد تجمعت الدموع في عينيها وهي تقول :

- اشتريت . اشتريت كيسا من الدم لأمي المريضة .

وانفجرت في البكاء ...

ضرتي

بيتي ، مملكتي الخاصة ، فيه أشعر بهويتي ، صـــنعت كـــل ركن من أركانه ، شعرت بكل لمسة من لمساته ، طالما حلمـــت بنفسي فيه أميرة متوجة ، وبالسلطان الذي سوف يعيش فيه معي ، وأعيش معه كأميرة ، كثيرا ما خشـــيت قبـــل أن أتزوجـــه أن يأخذني النوم منه ، وكيف يغمض لي جفن وأنا معه وبجواره

مر عام علي إنشاء مملكتي وسلطاني معي ، كانـــت أقصـــى سعادتي عندما نتبادل الزيـــارات مـــع الأقـــارب والأصـــدقاء ، فنتحادث عن المستقبل عن أطفالنا الذين لم يولدوا بعد ، وكـــأنهم حقيقة واقعة يعيشون بيننا .

وجدته هذه الأيام مشغولا جدا .. ربما هناك شئ ما في العمل يستحق مزيدا من الاهتمام . قل الوقت الذي كنا نجلس فيه سويا . وعندما كنت أسأله عن سر تغيره المفاجئ كان يتهرب من سؤالي بأي شيء . لكنني سمعته ذات مرة يسأل زميلا له فـــي التليفـــون

عن شيء ما . قد يكون ماركة لجهاز أو سيارة لم أتأكد بعد ، تركته وشأنه لحين يخبرني به هو .

تأخر على غير عادته .. خرج من الصباح ولم يأت بعد .. ساورني القلق عليه ، لم أعتد منه هذا التأخير منذ زواجنا . عند منتصف الليل سمعت ضجة خارج البيت أرهفت السمع عرفت صوت زوجي وعبد المتعال البواب .. فتح باب الشقة ووجدتهما يدفعان شيئا داخل الحجرة وما أن أغلق الباب وانصرف البواب حتى انفجرت كالمدفع :

- أين كنت طول اليوم ، ولماذا لم تتصل بي ؟

وجدته غير عابئ بما أقول . تخيلت أني أحادث نفسي ، لولا أنني أراه أمامي .. وبكل هدوء رد على ثورتي العارمة ..

- اشتريت كمبيوتر ..

نظرت له بغيظ ثم سألته وأنا أزفر بشدة :

- أحضر لك العشاء .

كأنه لم يسمعني ، مضى يتحدث عن الكمبيوتر كأنه مخترعه وأنه سوف يحقق بهذا الجهاز العجيب ما لم تحققه البشرية طوال عمرها المديد . تركته ودخلت لأنام بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحا ، حتى أنني لم أذق أي طعام منذ الصباح ، فقد تعودت ألا أتناول طعاما بدونه ..

استيقظت عند الفجر .. تحسسته بجواري . لم أجده . اندفعت أبحث عنه في أرجاء الشقة . سمعت هسيس أصوات صادرة من حجرته المغلقة كأن أشباحا تجوس فيها . فتحت الباب ، وجدتــه قابعا أمامه .. وقد احمرت عيناه ولا يزال بملابسه ..

- ألن تنم ؟

- ليس الآن . اكتشفت مواقع جديدة على الإنترنت ..

صفقت الباب خلفي بقوة واندفعت نحو حجرتي وأنــا أتميــز غيظا : هل شعر بي ؟ هل أحس بما يعتمل بــداخلي ؟ . أبــدا . اتسعت الهوة بيننا .. أنا في حجرتي الضيقة أعيش وحيدة كــأنني في عالم واسع مترامي الأطراف ، وهو العالم عنده قرية صغيرة طيلة النهار والليل معه أمامه يتلمسه يتحسسه يحتضنه . ونســي تماما أن هناك امرأة في حياته . كدت أجن .. حتى الوقت الــذي لا يعمل فيه بجدية على هذا الجهاز اللعين كان يلاعبه ويلهو معه أصبحت بينهما لغة للحوار في الوقت الذي انعدم فيه الحوار بيننا

سخطا لتلك الحضارة التي أنجبت لنا هذا الجهاز اللعين الــذي خطف زوجي مني . أصبحت أغار منه بل صرت أكرهه . لذلك قررت في نفسي شيئا ما ..

في اليوم التالي عاد من الخارج متلهفا للقاء محبوبــه الــذي غاب عنه طيلة النهار .. دخل كعادته حجــرة مكتبــه .. مــا أن

وقعت عيناه عليه حتى أصيب بحالة هستيرية اتهمنـــي بـــالجنون والتخلف والغباء .. وبأن لدي الرغبة في التحطيم ومن الأفضـــل لي أن أعرض نفسي على أخصائي قبل أن أحطـــم مـــن حـــولي وأخيرا قال كلمته الفاصلة التي يقولها كل رجل لامرأتـــه عنـــدما تضيق به السبل وتعييه الحيلة .

لا يهم يكفيني أنني انتقمت لكرامتي وكبريائي الجـــريحين .. وحطمت ضرتي .. درته الغالية ..

الضفيرة الذهبية

الستائر مسدلة ، أنوار الحجرة خافتة ، لا يظهر من ورائهـــا سوي شبح يتحرك جيئة وذهابا ، لا يقطع ســكون الليــل ســوي صوت دقات الساعة وأنين خافت مكتوم كأنـــه آت مـــن أعمـــاق الأرض .

انفلتت من بين أناتها آهة لم تستطع السيطرة عليها ، لا تدري ان كانت آهة ألم أم آهة يأس وقنوط . لم تغسل الـــدموع مقلتيهـــا ولم تندمل جراحها بعد . هيهات أن تلتئم . فالجرح مـــازال حيـــا رغم مرور أربع سنوات علي فقدانها إياه . لم يكن زوجا فحسب، بل دنياها طفولتهـــا وشـــبابها وهرمهـــا ، الماضـــي والحاضـــر والمستقبل . ارتعد بدنها . خيل لها أن شبحا يتحرك وسط الظلام الدامس . امتدت يدها إلي زر النور بصعوبة بالغة وقلبها يرتجف

- بسم الله الرحمن الرحيم ..

تمتمت بصوت خافت . مازال جسدها يرتجف . كلما راودتها سيرته يمر بها هذا الهاجس وكأن روحه تحوم حولهـا . وتلـتقط أذناها همهمات لا تدري إن كانت صدى لصوته قبـل أن يغـادر الدنيا ، أم أن روحه الغالية أبت أن تتركها وحيدة بعد أن هجرها الأهل والأولاد فجاءت لتؤنس وحشتها وتذكرها بالأيام الخوالي :

- ها قد حضرت يا مولاتي ..
- مولاتك ؟ أنا ؟
- أجل . فمن تملك شعرا كشعرك الذهبي تتوج ملكة ..

أطلقت آهة ثانية ، بل ثالثة ورابعة وربما مائة . امتدت يـدها إلى دولابها أخرجت علبة قطيفة يبدو أنها كانـت حمـراء إلا أن غبار السنين أفقدها زهوها . انتفض جسـدها عنـدما واجهـت صورتها في المرآة . شاحبة اللون ، مشعثة الشعر . ذابلة الشفاه مغضنة الوجه ..

- يا للزمن .. أهذا أنا .. مستحيل ..

أجهشت بالبكاء مرة أخري بل مرات عديدة ، لم تجد يدا تمتد إليها لتمسح دموعها التي انهمرت علي خديها أو لتربـت علـي ظهرها . تذكرت العلبة القطيفة التي أخرجتها من حافظة ملابسها نفضت عنها تراب السنين . فتحتها . أخرجت منها ضفيرة ذهبية

مجدولة ، بالرغم من مرور السنين فما زالــت تحــتفظ برونقهــا وبهائها . شبكتها علي رأسها وعادت تنظر إلى المرآة :

- ملكة والله يا ناس .

تذكرته مرة أخرى . أفسد ذكرياتها رنين جرس التليفــون .. قامت متثاقلة رفعت السماعة :

- آلو
- صباح الخير ياماما
- عاطف .. صباح الخير يا حبيبي .
- مبروك يا ماما لقد أصبحت جدة . أنجبت سعاد طفلة جميلــة أسمتها أمل .

شعرت بشيء جديد يسري في أوصالها وكيانها . شــيء لــم يعترها من قبل . اندفعت الدماء إلي وجنتيها . أزاحت ســتائرها المظلمة . تسللت الشمس الذهبية الساحرة لتغمرها فملأت المكان بأمل جديد . فتحت دولاب ملابسها . اختارت جونلة واسعة ذات ألوان جميلة ثبتت الضفيرة جيدا وعادت تنسج الخصلات الباقيــة في رأسها أحكمت جدلها الواحدة تلو الأخــرى ، وضــعت فــي نهايتها دبوسا جميلا . شعرت بصوته يناديها حتى ملأ المكان من حولها ..

- لابد وأن تستمر الحياة ..

الفهرس

د . عطيات أبو العينين

دكتوراه في الآداب ، عملت أستاذ مساعد بقسم علم النفس بكلية البنات بالمملكة العربية السعودية . عملت مذيعة بالتليفزيون المصري وصحفية بجريدة الشرق الأوسط والهدف، تعمل حاليا بإذاعة القاهرة الكبرى . تكتب القصة القصيرة والمقال والأبحاث – الترجمة – وبعض الموضوعات العلمية

الأعمال المنشورة :

١. مرارة المشمش : مجموعة قصصية – إشراقات جديدة – هيئة الكتاب
٢. أطفال حكموا العالم (١) : مجموعة قصصية للأطفال يتم إعدادها حاليا للتليفزيون – دار فرحة
٣. ضرتي – مجموعة قصص قصيرة
٤. الاغتراب والشباب دراسة نفسية لمفهوم الاغتراب نشر بهيئة الكتاب
٥. الزواج والتوافق النفسي : دراسة نفسية نشرت بمجلة علم النفس بهيئة الكتاب

E.mail: attaneen@hotmail.com

الناشـــــــر

دار النيـــــــــل

للنشر والطبع والتوزيع

١٢ شارع عبده بدران

م الباشا - المنيل - القاهرة

ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع : ٢٣٩٦٥ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي

٣-٩٠/٥٤١٤/٩٧٧

E.mail: attaneen@hotmail.com